(السنة الرابعة عشرة)

العدد الثانى ابريل - يونيه ١٩٤٨

صحيفة دار العلوم

ص ر ح ١٩٣٤ م

تصدرها «جماعة دار العلوم»
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق
السباعى بيومى
وكيل كلية دار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج

إِنَّ بَاحِثاً مُدَقِّقاً لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ»

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، وكل شريف خارجيا فى أوله » إلى أن قال فى موضع آخر « ولا أحسب أحداً من أهل المعرفة والتمييز ، نظر بعين العدل وترك طريق التقليد ، يستطيع أن يقدم أحداً من المتقدمين على أحد ، إلا أن يرى الجيد فى شعر المكثرين ، أكثر منه فى شعر غيرهم »

٣ ــ أراد ابن قتيبة أن يخضع النقد الأدبى ، من حيث استحسان الشعر أو استهجانه للأقيسة العلمية ، دون مساس منه بالناحية الأدبية والذوق ، فجعل الشعر لفظا ومعنى ، ونظر إلى اللفظ من ناحية الحسن وغيره ، وإلى المعنى من ناحية الجودة وغيرها ، ثم داخل بين هذين وهاتين ، وإذا به يجعله أربعة أضرب ــ فيقول فى ذلك اقتصرنا ــ فيما قال أحيانا على بعض شواهده دون بعض ــ من تلك المقدمة أيضاً :

« تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب ، ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ، كقول أوس بن حجر « فى رثاء فضالة بن كلدة » .

أيتها النفس أجملى جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا

لم يبتدىء أحد مرثية باحسن منه ، وكقول أبى ذؤيب « فى رثاء بنيه »

والنفس راغبة إذا رغبتها   وإذا ترد إلى قليل تقنع

حدثنى الرياشى عن الاصمعى أنه قال ، هذا أبرع بيت قالته العرب ، وكقول حميد بن ثور :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة   وحسبك داء أن تصح وتسلما

لم يقل أحد فى الكبر أحسن منه ، وكقول النابغة :

كلينى لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطىء الكواكب

لم يبتدىء أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب ، وكقول القائل « الفرزدق فى مدح زين العابدين »

فى كفه خيزران ريحه عبق   من كف أروع فى عرنينه شمم
يغضى حياء ويغضى من مهابته   فلا يكلم إلا حين يبتسم

ومثل هذا فى الشعر كثير ، وليس للاطالة فيه وجه ، وستراه عند ذكر أخبار الشعراء .

وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فاذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا ، كقول القائل « كثير عزة »

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الاباطح

وهذه الألفاظ أحسن شىء مطالع ومخارج ومقاطع ، فاذا نظرت إلى ماتحتها وجدته ، ولما قضينا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لاينظر من غدا الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح ، وهذا الصنف فى الشعر كثير ، ونحو منه قول جرير :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وقوله :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك له وهن أضعف خلق الله إنسانا

وضرب منه جاد معناه وقصرت الألفاظ عنه ، كقول لبيد :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

فهذا وإن كان جيد المعنى والسبك ، فانه قليل الماء والرونق ، وكقول النابغة للنعمان :

خطاطيف حجن فى حبال متينة تمد بها أيد اليك نوازع

رأيت علماءنا يستجيدون معناه ، ولا أرى ألفاظه مبينة لمعناه ، لأنه أراد ، أنت فى قدرتك على كخطاطيف عقف ، وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف ، وعلى أنى لست أرى المعنى جيداً :

وضرب منه تأخر لفظه وتأخر معناه كقول الأعشى :

إن حلا وإن مرتحـــلا وإن فى السفر إذ مضوا مهلا
استأثر الله بالوفاء وبالحمـــد وولى الملامة الرجـــلا
والأرض حالة لما حمل الله وما إن ترد ما فعلا
يوما تراها كشبه أردية العصـــب ويوما أديمها نغلا

وهذا الشعر منحول لا أعرف فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :

يا خير من يركب المطى ولا يشرب كأساً بكف من بخلا

يقول إن كل شارب يشرب بكفه ، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل ، وهو معنى لطيف .

على هذه المقاييس كان ابن قتيبة يقيس الشعر من قديم ومحدث ، من حيث حسن اللفظ وجودة المعنى على وجه الاجمال ، ولكنه لم يخل مقدمة كتابه من بعض تفاصيل تخرج عن هذا النطاق ، فانك لتراه بعد ذلك يقول :

« وليس كل الشعر يختار ويحفظ على حسن اللفظ وجودة المعنى ، ولكنه قد يختار على جهات وأسباب أخرى ،

منها الاصابة فى التشبيه كقول القائل فى القمر « على وجه التحسين »

بدأن بنا وابن الليالى كأنه حسام جلت عنه القيون صقيل
فما زلت أفنى كل يوم شبابه إلى أن أتتك العيس وهو ضئيل

وكقول الآخر فى مغن « على وجه التقبيح »

كأن أبا السمى إذا تغنى يحاكى عاطساً فى عين شمس
يلوك بلحيه طورا وطورا كأن بلحيه ضربان ضرس

ومنها خفة الروى كقول القائل :

ولو أرسلت من حبيـــك مهبوتا من الصين
لوافيتك عنـــد الصبـــح أو حين تصلين

ومنه ما يختار ويحفظ ، لأن صاحبه لم يقل غيره فقل شعره ، كقول أبى عبدالله ابن أبى سلول المنافق

متى مايكن مولاك خصمك لاتزل تذل ويعلوك الذى لاتصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه فان قص يوما ريشه فهو واقع

وقد يختار ويحفظ لأنه غريب فى معناه ، كقول القائل فى مجوسى

شهدت عليك بطيب المشاش وأنك بحر جواد خضم
وأنك سيد أهل الجحيم إذا ما ترديت فيمن ظلم
قرين لهامان فى قعرها وفرعون والمكتنى بالحكم

وقد يحفظ ويختار لنبل قائله ، كقول المأمون « فى رسول الى محبوبته »

بعثتك مشتاقا ففزت بنظرة وأغفلتنى حتى أسأت بك الظنا
وناجيت من أهوى وكنت مقربا فياويح نفسى عن دنوك ما أغنى
ورددت طرفا فى محاسن وجهها ومتعت باستسماع نغمتها أذنا
أرى أثرا منها بعينك لم يكن لقد سرقت عيناك من عينها حسنا

« فهذا شعر شريف بصاحبه وبنفسه »

٣ ـ وقد تعرض ابن قتيبة للمتكلف والمطبوع من الشعراء ، فكان مما قال فى تلك المقدمة أيضا ، ومن الشعراء المتكلف والمطبوع ، فالمتكلف هو الذى قوم شعره بالثقاف ، ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر ، كزهير والحطيئة ، وكان الأصمعى يقول « زهير والحطيئة وأمثالهما من الشعراء عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين » وكان زهير يسمى قصائده بالحوليات ، وكان الحطيئة يقول ، خير الشعر الحولى المنقح المحكك ، وقال سويد بن كراع يذكر تنقيحه لشعره .

أبيت بأبواب القوافى كأنما أصادى بها سربا من الوحش نزعا
أكالئها حتى أعرس بعد ما يكون سحيرا أو بعيدا فأهجعا
إذا خفت أن تزرى على رددتها وراء التراقى خشية أن تطلعا

وقال عدى بن الرقاع فى ذلك :

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف فى كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

ثم قال، والمتكلف وإن كان جيد الشعر محكمة، فليس به خفاء على ذوى العلوم، لتبينهم مانزل به من طول التفكر، وشدة العناء، ورشح الجبين، وكثرة الضرورات، وحذف ما بالمعانى حاجة اليه، وإثبات ما بالمعانى غنى عنه، إلى أن قال، ويبين التكلف فى الشعر بأن ترى البيت مقرونا بغير جاره، ومضموما إلى غير لفقه، قال عبد الله بن سالم لرؤبة، مت ياأبا الجحاف متى شئت، قال وكيف ذاك، قال إنى رأيت ابنك عقبة ينشد شعراً له أعجبنى، قال نعم ولكن ليس لشعره قران، يريد أنه لا يقارن البيت بشبهه، وقال قائل لآخر، أنا أشعر منك ؟ قال وبما ذاك، قال لأنى أقول البيت وأخاه وتقول البيت وابن عمه.

ذاك ماقاله ابن قتيبة عن التعريف بالمتكلف من الشعراء، أما المطبوع فقد قال فى التعريف به ـ والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر، واقتدر على القوافى، وأراك فى صدر البيت عجزه، وفى فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتدجر « أى يتحير » قال الرياشى : حدثنى أبو العالية عن أبى عبدان المخزومى قال، أتيت والياً كان على المدينة من قريش، وعنده ابن مطير الشاعر، وإذا مطر جود، فقال الوالى له صف لى هذا المطر، قال دعنى أشرف عليه ثم نزل ثم عاد فقال :

كثرت لكثرة قطره أطباؤه   فاذا تحلب فاضت الأطباء
وله رباب هيدب لرنينه   قبل التبعق ديمة وطفاء
وكأن ريقه ولما يحتفل   ودق السماء، عجاجة كدراء
وكأن بارقه حريق تلتقى   ريح عليه عرفج وألاء
مستضحك بلوامع، مستعبر   بمدامع لم تمرها الأقذاء
فله بلا حزن ولا بمسرة   ضحك يؤلف بينه وبكاء
حيران متبع صباه تقوده   وجنوبه كنف له ووعاء
غدق ينتج فى الاباطح فرقا   تلد السيول وما لها أسلاء
غر محجلة دوالج ضمنت   حمل اللقاح وكلها عذراء

سحم فهن إذا كظمن سواجم ، سود وهن إذا ضحكن وضاء
لو كان من لجج السواحل ماؤه لم يبق في لجج السواحل ماء

فهذا شعر مع إسراعه كما ترى ، كثير الوشى لطيف المعانى . إلى أن قال عن اختلاف الطبع فى الشعراء ، والشعراء فى الطبع مختلفون ، فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء ، ومنهم من تسهل عليه المراثى ويتعذر عليه الغزل ، قيل للعجاج إنك لا تحسن الهجاء فقال « إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم وأحسابا تمنعنا من أن نظلم ، وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم » قال ابن قتيبة ولكن ليس هذا كما ذكره العجاج ، ولا للمثل الذى ضربه ، لأن المديح بناء والهجاء بناء ، وليس كل بان لضرب بصيراً بغيره ، ونحن نجد ذلك بعينه فى أشعارهم ، فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيبا ، وأجودهم تشبيها ، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وحية وقراد ، فاذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع ، وذلك الذى أخره عن الفحول ، فقالوا . فى شعره أبعار غزلان ونقط عروس ، وكان الفرزدق زير نساء ، ومع ذلك لا يجيد التشبيب ، وكان جرير عفا عن النساء ، ومع ذلك أحسن الناس تشبيبا ، فكان الفرزدق يقول « ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعرى ، وأحوجنى إلى رقة شعره ، لما ترون »

وكما تعرض ابن قتيبة لاختلاف الطبع فى الشعر ، تعرض كذلك لأباء الطبع أحياناً على المطبوعين ، ولاستدعائهم له بكثير من الدواعى ، التى من شأنها حثهم بل بعث المتكلفين ، فقال عن الاباء ، وللشعر أوقات يبعد فيها قريبه ، ويستصعب فيها ريضه ، كمنثور الكلام فى الرسائل والمقامات والجوابات ، ولا تعرف لذلك علة ، إلا من عارض يعرض على الغريزة من سوء غذاء أو من خاطر غم ، قال الفرزدق أنا أشعر تميم عند تميم ، وربما أتت على ساعة ، ونزع ضرس أهون على من قرض بيت ، وله أوقات يسرع فيها أتيه ويسمح فيها أبيه ، منها أول الليل قبل تغشى الكرى ، وصدر النهار قبل الغداء ، ومنها الخلوة فى المجلس وفى المسير ، وبهذه العلل تختلف أشعار

الشاعر ورسائل الكاتب ، قالوا فى شعر النابغة الجعدى « منه خمار بواف ومطرف بآلاف » ولا أرى غير الجعدى فى هذا الحكم إلا كالجعدى .

وقال عن الاستدعاء ، وللشعر دواع تحث المطبوع وتبعث المتكلف ، منها الشراب ومنها الطرب ومنها الغضب ومنها الطمع ومنها غير ذلك . قال عبد الملك لأرطاة بن سهية هل تقول اليوم شعرا ، فقال كيف أقول وأنا لاأشرب ولا أطرب ولا أغضب ، وانما يكون الشعر بواحدة من هذه ، وقيل للحطيئة من أشعر الناس ، فأخرج لسانا دقيقا كأنه لسان حية وقال ، هذا اذا طمع ، وقال أحمد بن يوسف لأبى يعقوب الخريمى . مدائحك فى منصور بن زياد - كاتب البرامكة - أشعر من مراثيك فيه وأجود ، فقال كنا إذ ذاك نقول على الرجاء ، ونحن اليوم نقول على الوفاء ، وبينهما بون بعيد ، وهذه عندى قصة الكميت فى معرض بنى أمية وآل أبى طالب ، فانه يتشيع وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعره فى بنى أمية أجود من شعره فى الطالبيين ، ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع ، وإيثار عاجل الدنيا على آجل الآخرة ، وقيل لكثير كيف تصنع يا أبا صخر إذا عسر عليك الشعر ، فقال ، أطوف فى الرباع المحيلة ، والرياض المعشبة فيسهل على أريضه ، ويسرع إلى أحسنه ، ويقال ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجارى والشرف العالى والمكان الخضر الخالى .

رابعا - أدباء الفلاسفة - لم يكد هذا العهد يتنصف ، حتى كانت معارف العرب المنقولة عن غيرهم فى المنطق والبلاغة ، ولاسيما عن اليونان ، قد اكتملت وأصبحت ذات كيان فى كتب مستقلة . ومن هنا بدأ النقد الأدبى يتأثر بالمنطق والبلاغة ، على أيدى بعض رجاله ، مع عدم صلاحية هذين العلمين للدخول فى ميدان النقد ، فكان هذا التأثر مبعداً للنقد عن روحه الحق ، ومتجها به وجهة ضارة ، فأما من حيث المنطق ، فلأن الأدب يأبى أن يخضع لما تخضع له العلوم ، من قواعد وضوابط ، يضعها العقل ويهيمن عليها المنطق كما سيأتى بعد . وأما البلاغة فلأنها حين ترجمت جاءت مأخوذة عن

أصول أجنبية ، لا يسكن اليها الذوق العربي السليم ، ثم وقعت ترجمتها على أيدى الفلاسفة والأعاجم ، الذين حرموا هذا الذوق .

وقد جاءت هذه الذهنية لأدباء الفلاسفة ، ممثلة فى شخصية قدامة بن جعفر ، الذى بذل ما بذل ، فى سبيل إخضاع النقد الأدبى للفلسفة والبلاغة المنطقية ، ومع ذلك بقى بعيدا به عن الذوق الادبى جملة ، وإلا فكيف يستطيع المنطق أو البلاغة الخاضعة لمقاييسه الفلسفية ، أن تنقد شيئا أخص عناصره الشعور ، هو الادب وأخصه الشعر ، هذا وان السبب الذى من أجله وقع قدامة فيما وقع ليتضح جليا فيما يأتى :

ترجم إسحق بن حنين ، فى النصف الثانى من هذا العهد ، كتاب الخطابة لأرسطاطاليس ، فقرأه العلماء وانكب عليه قدامة ، محاولا الانتفاع بما فيه من أصول ورسوم ، فى نقد الشعر ، فألف كتابه الموسوم بهذا الاسم يستدرك فيه -كما قال خطأ- وقع فيه النقاد ، ويستتم بوضعه نقصا عسر عليهم أن يستتموه ، هو أن توضع له -من حيث علم جيد الشعر من رديئه- قواعد وضوابط يخضع لها هذا النقد ويستغلها من بعده الناقدون ، كما هى الحال فى شتى المعارف والعلوم ، مستعينا على ذلك كله بالمنطق المثبت فى كتاب أرسطاطاليس ، وبقواعد البلاغة التى أفاض فيها واضعه على هدى الفلسفة والمنطق ، لا الادب والذوق ، فكان من جراء ذلك ، أن قرر قواعد للنقد أهمها ما يأتى :

١ - عرف الشعر بأنه قول موزون مقفى يدل على معنى ، ولم يقف فى فى التفضيل موقف ابن قتيبة عند حد اللفظ يكون حسنا وغير حسن ، والمعنى يكون جيدا وغير جيد ، والأضرب الاربعة التى استنبطها من تداخل هذين فى هذين ، وانما ضم فى هذا التفضيل الى عنصرى اللفظ والمعنى عنصرين آخرين هما الوزن والقافية ، ونظر الى كل من الأربعة نظرة مفردة ، فجعله لذاته حسنا وغير حسن ، ثم عاد فنظر إلى اللفظ من حيث ائتلافه مع المعنى ومع الوزن ، والى المعنى من حيث ائتلافه مع الوزن ومع القافية ، فجاءت الضروب عنده ثمانية لا أربعة ، وكان هذا التوليد الاخير على تحكمه غير منطقى ،

وإلا فلماذا لم يجعل لكل من اللفظ والوزن ائتلافاً مع القافية ، حتى يستتم التقسيم المنطقى ، ثم هو وقد ذكر هذه الائتلافات ، كأنه ضرب صفحاً عن الجهة الروحية لتقسيم ابن قتيبة ، من وجهة أن للفظ فى حسنه أو عدمه علاقة بالمعنى ، كما أن للمعنى فى جودته أو عدمها علاقة باللفظ، ومع هذا فلننظر إلى بعض قال :

ــ عنى بالحسن فى اللفظ أن يكون سمحا سهل مخارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة ، ثم أتى بشواهد من هذا الشعر ، دون أن يبين فيها ماأراده من تلك السمات ، وحين تعرض لمعايب الألفاظ لم يزد على أن ذكر أمثلة مما يذكره البلاغيون المنطقيون فيما يخرج بالألفاظ عن دائرة الفصاحة. وليس أمر النقد هنا يقف عند الذى يقول وإنما للنقد فى هذه الناحية تحليقات روحية لاتخضع لهذه القواعد المادية ، ألا ترى أن كلمة يؤذى حسنة فى قوله تعالى من آية الاستئذان « إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق » بقدر ماهى مستهجنة فى بيت المتنبى :

تلذ له المروءة وهى تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

ــ وعنى بالحسن فى المعنى ماسنذكره فى النبذة التالية الثانية التى خصصناها له لما تورط فيه من منطق عميق .

ــ وعنى بالحسن فى الوزن أن يكون سهل العروض وأن يتوخى فيه الترصيع وهو فى الشعر بمثابة السجع أو الزواج فى النثر ثم مثل بطائفة يرى فيها تلك السهولة وأخرى يتحقق فيها الترصيع ، فأما الترصيع فلا شأن لنا به ولايجوز أن نعد له شأنا لأنه محسن بديعى لايسلب الكلام الحسن لخلوه منه ، وأما السهولة فان أمثلته عليها تفهم أنه عنى بها البحور قصار التفاعيل ، أو مجزوءات طوالها، وليس الأمر كما ذكر، لأن السهولة كما تكون فى الطويل تكون فى القصير من البحور ، ولأن القصير منها إنما يحمد حين يلهو الشاعر ويميل إلى الغناء والترقيص، أما من يجد ويفيض فانما يتطلب الوزن الطويل ، ثم هو حين تعرض بعد لعيوب الوزن لم يزد على ماذكره علماء هذا الفن من عيوب فى

التفاعيل وبخاصة الأضرب والأعاريض من علل وزحافات .

– وعنى بالحسن فى القافية أن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج ، وأن تقصد لتصريع البيت الاول من القصيدة ، وذكر أن بعض الشعراء كان يوقع التصريع فى بعض الابيات خلالها ، لم يزد على ذلك وعدد عليه الشواهد ، دون أن يفصح عما أراد من عذوبة حرف القافية ولا سلاسة مخرجها ، وحين تصدى لمعايبها ، لوح بما ذكره علماء الفن فى عيوب القوافى من إقواء وإيطاء وسناد ، وعرج إلى ماسماه بالتجميع وعرفه بتأتى العروض على غير ما يهوى الضرب من مجيئها على رويه ، كأنه يريد التصريع ، وليس ذلك بالعيب كما يقول :

– ثم عنى بائتلاف اللفظ مع المعنى المساواة بالمعنى الذى يريده البلاغيون ، ولكنه عد منه أنواعا لا تتفق مع المساواة ، إذ جاء بعضها من الإيجاز كالاشارة وبعضها من الأطناب كالأرداف ، وبعضها لا يقصر على ناحية من هذه النواحى الثلاث كالتمثيل ، والعجب أنه حين تصدى لمعايب هذا الائتلاف ذكر ما ذكره البلاغيون حين تعريف المجاز والأطناب من إخراج ماليس منهما ، كالاخلال والحشو ، أما الايجاز الحق والأطناب الحق فكأنهما لا موضع لأحدهما ألبتة مع هذا الائتلاف بين اللفظ والمعنى ، وهما منه فى الصميم كالمساواة بل أشد من المساواة .

– وعنى بائتلاف اللفظ والوزن شيئاً عجباً هو قوله أن تكون الأسماء والأفعال فى الشعر تامة مستقيمة كما بنيت ، وأن تكون فى أوضاعها من الأقوال المؤلفة منها ، ثم عد منه ألا يضطر الوزن إلى ذكر معنى ليس من غرض الشعر ، أو إسقاط معنى هو من غرضه ، وحين تعرض لمعايبه عد أموراً بدهية كالحشو والتثليم والتذنيب وغيرها مما هو من عيوب العروض ، وكل الذى قاله هنا لا يخرج عن القواعد والضوابط البلاغية ، كما هى هوايته وكلها معروفة .

– وعنى بائتلاف المعنى والوزن أن تكون المعانى تامة مستوفاة لم تضطر بإقامة الوزن

إلى نقصها عن الواجب ، ولا إلى الزيادة فيهـا عليه ، وأن تكون أيضاً مواجهة للغرض لم تمتنع عن ذلك وتعدل عنه من أجل إقامة الوزن والطلب لصحته ، وإنى لست أفهم من صدر هذه العبارة غير الذى عناه بعجز عبارته فى ائتلاف اللفظ والوزن ، أما عجزها فهو وصدر تلك فى البداهة سواء ، وإن كان قد بذ زميله فى الميل إلى عبارات المناطقة التى تأباها عبارة كتاب فى نقد الشعر ، وحين تعرض لعيوب هذا الائتلاف وقف شواهده على ما يعرف عند البلاغيين بالقلب ، والفرق أنه عابه وهم لم يعيبوه .

ـ وأخيراً عنى بائتلاف المعنى والقافية ، أن تكون القافية من معنى البيت ، تعلق نظم له وملاءمة لما مر فيه ، وحين تعرض لعيوب هذا النوع قال ، أن تكون القافية مستدعاة قد تكلف الشاعر فى طلبها فاستعمل معنى سائر البيت ، ومثل لذلك بأبيات منها .

وسابغة الأذيال زغف مفاضة تكنفها منى البجاد المخطط

زاعما أن لا علاقة لتخطيط البجاد بتجويد نعت هذه الدروع ، وليس الأمر كما قال ، إذ لا يبعد أن يكون الشاعر ـ هو على بن محمد البصرى ـ لحظ المشابهة بين الدرع والبجاد المخطط ، أو أن يكون أراد أنه من المترفين الذين كانوا يغلون دروعهم يبالغون فى أكسيتهم أو غير ذلك .

٢ ـ ولما تعرض لمعانى الشعر ، ذلك العنصر الذى أرجأنا الكلام عليه لطوله حين عن موضعه ، قال يعبر عن وصف الحسن فيه « وجماع الوصف لذلك ، أن يكون المعنى مواجهاً للغرض المقصود ، غير عادل عن الأمر المطلوب » وبعد أن ذكر أن أقسام المعانى التى يحتاج فيها إلى أن تكون على هذه الصفة مما لا نهاية لعددها ، رأى أن يقتصر منها على ستة كانت المقدمة فى أغراض الشعراء ، وهى المديح والهجاء والمراثى والنسيب والوصف والتشبيه ، وأخذ يدون رأيه فى كل منها ، وها نحن أولاء مجملوه :ـ

ـ قال عن المدح مترسما خطا كتاب الخطابة ومتخذا لغة المنطق وتحكياته : إنه لما كانت فضائل الناس ، من حيث إنهم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون

فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق فى ذلك ، إنما هى العقل والشجاعة والعدل والعفة ، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً ، والمادح بغيرها مخطئاً ، وأخذ يضرب الأمثلة القاصدة اليها أو إلى إحداها أو إلى فرع من إحداها ، مع عده المادح فى الحالة الوسطى مقصراً ، وفى الحالة الثالثة أشد تقصيراً ، لوقوفه دون حدود الاستيعاب ، وهذا تحكم منه شديد ، فليس كل مدح قصد إلى هذه النواحى جيداً ، كما ليس كل مدح خلا منها ردیئاً ، ولسنا نحتج عليه فيما نقول إلا بقوله هو ، فانه حين تعرض لعيبه وهو يذكر فضل قول عبد الله بن قيس الرقيات فى مصعب بن الزبير .

إنما مصعب شهاب من اللـــه تجلت عن وجهه الظلماء

على قوله فى عبد الملك بن مروان :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

نسب عدم رضا عبد الملك عن هذا البيت إلى خلوه من الصفات النفسية الأربع التى عددها ، ناسياً أن البيت الأول الذى فضله عبد الملك ورضى هو عن هذا التفضيل خلو منها أيضاً .

— وقال فى نعت الهجاء — إنه قد سهل وجه الهجاء ، وطريقه ما تقدم فى قولنا فى باب المديح وأسبابه . إذ كان الهجاء ضد المديح ، فكلما كثرت أضداد المديح فى الشعر ، كان أهجى له ، ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الأهاجى فيها وكثرتها ، وحين تعرض لعيبه قال ، وجماع القول فيه أنه متى سلب المهجو أموراً لا تجانس الفضائل النفسية ، كان ذلك عيباً فى الهجاء ، ثم عدد أموراً كثيرة يقع بها الهجاء خطأ لأنها ليست من تلك الفضائل ، ولكنه لم يكن دقيقاً فى الوقوف عند القيود التى قيد بها نفسه ، فقد ذكر أن من تلك الأمور ، أن تنسب إلى الشخص أنه مقتر ، مع أن التقتير فرع يتصل بأحد تلك الصفات إذ هو ضد الجود والجود من الشجاعة ، على أنه ذكر أموراً أخرى الهجاء فيها موجع ، حاكما عليه بأنه ليس جاريا على الحق ، كأن ينسب إلى الشخص أنه من قوم ليسوا بأشراف ولو كانت خصاله كريمة ،

والهجو بهذا النوع له فى الشعر العربى مكان واعتبار .

ـ وقال فى نعت المراثى ـ ليس بين المرثية والمدحة فصل ، إلا أن يذكر فى اللفظ ما يدل على أنه لهالك ، مثل كان وتولى وقضى نحبه وما أشبه ذلك، وهذا ليس يزيد فى المعنى ولا ينقص منه إلى أن قال ـ وإذ قد تبين بما قلنا آنفاً أنه لا فصل بين المديح والتأبين إلا فى اللفظ دون المعنى ، فإصابة المعنى به ومواجهة غرضه ، هو أن يجرى الأمر فيه على سبيل المديح . وحين تعرض لعيوب المراثى قال ، وفيما قدمته فى باب نعوتها ما أبان عن الوجه فى باب عيوبها ، إذا كان النظر صحيحاً والفكر سليما ، ومما ذكر عن هذه الفنون الثلاثة ترى أيها القارىء أنه حصرها كلها فى باب الفضائل النفسية حاذياً حذو أرسطاطاليس فى كتاب الخطابة كما ألمعنا حيث الكلام على المديح، وهذا تحكم لا مبرر له،على أنه مع ما أصاب فى تطبيق كثير من الشواهد ، أخطأ فى بعض ليس بالقليل ، كما ذكرنا آنفاً فى بيت ابن الرقيات .

ـ وقال فى نعت النسيب ـ يجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة ،وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، إلى آخر ما قال ، وقد أجاد وأفاد فى تصوير هذا الفن لأنه خرج به عن تلك الدائرة التى ضربها على نفسه، فى الفنون الثلاثة السابقة،وجعل النسيب يشمل مع نعت النساء ،والتودد اليهن ، وتصرف أحوال الهوى معهن، ما يتصل به من التشوق لمعاهدهن ، بالرياح الهابة والبروق اللامعة والحمائم الهاتفة ، والخيالات الطائفة والآثار العافية وغيرها مما يكون ذكره دليلاً على عظيم الحسرة وشديد اللوعة ، وكما أحسن التصوير أجاد التمثيل ، وأجاد أيضا نعت عيبه ، إذ قال ، إنما هو مضادة ما قدمنا ذكره فى باب نعته ، ثم مثل تمثيلا صائباً .

ـ وقال فى نعت الوصف متحدثا عن شعرائه ، أحسنهم من أتى فى شعره بأكثر المعانى التى الموصوف مركب منها ، ثم بأظهرها فيه وأولاها ، حتى يحكيه بشعره ويمثله للحس بنعته ، وهو تعريف صائب المعنى،ولكنه فى عبارته

من كلام المناطقة ، وإذا صح أن نأخذ عليه هنا شيئا ، فهو تقصيره فى التمثيل للوصف ، إذ وقفه على قلة من الشواهد ، وعلى أبيات مفردة فى بعضها ، وفى هذا إجحاف بالمكانة العريضة للوصف فى الأدب على جميع عصوره ، على أنه لم يتعرض هنا للمعايب وهذا تقصير آخر .

ــ وقال فى نعت التشبيه ــ إن أحسنه هو ماأوقع بين الشيئين اشتراكا فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد ، وأكثر من التمثيل لذلك نصيبا ، ثم لم يتعرض لمعايب التشبيه كما فعل مع الوصف ، وإن لنا لاعتراضا أصيلا فى عده التشبيه من فنون الشعر ، وسلكه إياه فى سلك الخمسة السابقة ، وهو ليس بفن ، وإنما هو معنى شعرى يتصل بسائر الفنون ، هذا مع تركه فنونا كانت جديرة بالايراد .

٣ ـ وأخيراً أهمل قدامة أن النقد الأدبى فن لا علم ، وأنه لذلك لا يخضع لقواعد عامة مطردة ، كما تخضع العلوم ، وإنما يخضع للذوق الفنى ، الذى هو عماد فهم النصوص وتذوقها والاحساس بما فيها ، من رقة وعذوبة فى الاسلوب ، وإصابة وإجادة فى المعنى ، وأنه لاختلاف أذواق الناقدين ، يجىء مثلها مختلفاً فى مناحيه ومراميه ، ثم إنه يعتمد فى الناقد أكثر ما يعتمد على عناصر ثلاثة ، أولها أن يكون الناقد ملماً باللغة ، واسع الأفق فى الأدب ، وما يتصل به من معارف وأخبار ، والثانى أن يكون ناضج الذوق الأدبى ، مكتمل الملكة النقدية ، وهذه ناحية على مالها فى العنصر الأول من مدد ، ترتكز على الهبة الغريزية والاستعداد الفطرى ، والثالث أن يكون على دراية بالأسس العامة ، التى اهتدى اليها النقاد فى تطور الآداب ، فاذا ما استكملت لديه هذه العناصر الثلاثة ، كان جديراً أن يدخل حلبة النقد ، ويجرى مع النقاد ، ولكن مع شىء آخر ، يعتبر صمام الأمان ، هو ألا يسمح لتلك الأسس ، وهى أشبه بالقواعد ، أن تطغى على طبيعة الأدب التى تأبى الخضوع والاستسلام .

وبعد فسواء أكان قدامة يجهل هذه الأمور ، أو يعلمها ـ وهو ما نغلب ـ ولكن غلب عليه المنطق ، فانه تنكب فى اتجاه كتابه « نقد الشعر » المهيع الحق للنقد على ماله فيه من محاسن ، وخير ما يعترف له به فى الكتاب من ميزة ، هو أنه ابتكر بعض الفنون البلاغية بعد ابن المعتز ، وهيأها للخلف ، الذين جروا فى فهم البلاغة على طريقة المناطقة والفلاسفة ، فحق لذلك أن يعد منهم لا من الأدباء النقاد .

السباعي بيومي

بنو تميم في سماء العروبة

– ٣ –

بين بنى تميم وقريش

للأستاذ عبد العزيز مزروع الأزهرى

المدرس بالمدارس الثانوية

---

(١) أول مجمع لغوى عند العرب . (٢) التنسيق اللغوى لقريش . (٣) لم بالغ العلماء فى أثر القرشيين . (٤) التاريخ الحق ينصف بنى تميم (٥) كيف كان بنو تميم قضاة العرب وحكامهم . (٦) اللهجات المنبوذة ونماذج منها .

(١) أول مجمع لغوى عند العرب : إذا كان (سابور أزدشير) الفارسى أول من دعا العلماء إلى تأسيس (مجمع لغوى) لتغذية اللغة الفارسية بما هى فى حاجة إليه من اللغة اليونانية ، فإن (أسواق العرب فى الجاهلية) كانت أبسط الصور وأولها للمجامع اللغوية عندهم .

وقد كانت هذه الأسواق أشبه بمعارض سنوية ، يقوم فيها الشعراء والخطباء فيتفاخرون ، ويتنافرون ، ويتعاظمون ؛ فيحاضرون القبائل بأرقى ما وصلت إليه اللهجات فى ألفاظها ، وتعابيرها ، ومناهجها ، وآثارها الشعرية والخطابية .

(منزلة المضريين) : ونظراً إلى أن المضريين كانوا أعز القبائل حمى وأكثرهم عدداً وأوفرهم حيوية ، كانت لغتهم أقوى اللغات ، ولهجتهم أرقى اللهجات

وارتجالهم أعذب الموارد اللغوية لجميع القبائل ؛ فدصفت بماعداها بل بالحميرية مع أنها أقدم منها عهداً وأسبق جهاداً ، وقد ظل الحال على هذا المنوال حتى أشرق الإسلام ، فسحر العرب لبلاغة القرآن وأسلوبه وسلاسته ...

(فى العهد الأموى) وسارت مواكب الأيام إلى غايتها حتى كانت أيام الأمويين ، فأخذ واحد من حفدة معاوية ينظر فى كتب الأقدمين ، ويترجم منها ، فاضطرته الترجمة إلى البحث عن كلمات عربية بدل السريانية أو اليونانية .

(فى العهد العباسى) ولم تأت أيام العباسيين حتى هب علماء البصرة والكوفة ، ملبين نداء الخلفاء العباسيين وحاجة الحضارة العربية ، فكان لهم كل الفضل فى تدوين العلوم اللغوية والمدنية ...

(٢) [التنسيق اللغوى لقريش] : ندر أن تجد فى ظلال التاريخ قبيلة نالت من خلود الذكر وحسن الأحدوثة والعبقرية اللغوية ما نالته قريش ؛ لأن مركزها الاجتماعى والدينى فى الجاهلية ، ودعايتها وظروفها فى صدر الإسلام ، كانت كفيلة بإسناد كل فضل إليها وإلى بنيها ولا سيما فى الميدان اللغوى !! ويكاد الناس ينسون (ماضى تميم) وبقية المضريين الذين رفعوا لواءها خفاقا فى الجاهلية من آماد سحيقة !! وكان لهم مجد أضخم من مجد القرشيين ، وآثار رائعة ، لولاها ماوجدت قريش أسساً تبنى عليها مجدها وشهرتها وخلودها .

إن كل ماقدمته هذه القبيلة المحظوظة لخدمة اللغة العربية أنها نهجت نهج (بنى تميم) وبنى عمومتهم فى التنسيق اللغوى لا فى الوضع أو الارتجال ، فأخذت تختار من لهجات القبائل ماسهل لفظه ، وخف وقعه ، فتدخله فى هيكل لهجتها ، وتستعمله فى شئونها التجارية ، وفى القضاء بينهم فى (دار الندوة) وفى مواسم الحج ؛ فوظيفتها كانت أشبه بوظيفة المصفاة فى دنيا السائلات ، والمنخل فى عالم المسحوقات !!

أئذا تكون كريهة أدعى لها   وإذا يحاس الحيس يدعى جندب !!

(٣) [لم بالغ العلماء فى فضل قريش]

إن تلك الظروف القاسية التى جعلتهم يتنكرون لقومى بنى تميم وأبناء عمومتهم ، بعد أسسوا قواعد اللغة ، وفجروا عيونها ، فى وقت كان العالم فى جهالة جهلاء وطمطمانية خرساء ، ترتد إلى امور أشهرها :

١ - أنّ من قريش (نبعة الوجود صلى الله عليه وسلم) وإذا كان التعصب قد دفع (أبا عبيد) أن يقول بعد ذكره (سفلى هوازن) و (عليا تميم) « وأفصح هؤلاء بنو سعد بن بكر » لنشأة النبي بينهم ، واسترضاعه فيهم ، فأولى بجمهرة العلماء أن يقلدوا قريشاً فخر الدهر ، وعز الأبد ، وأن يعقدوا لها اللواء ، ويكيلوا لها الثناء لأن النبي منهم عصباً ونسباً !!

٢ - وأن الخلفاء والحكام والولاة أيام تسجيل اللغة كانوا منهم ، ولبيت الملك فى كل زمان ومكان منزلته من الاجلال والسمو والهيبة .

٣ - والقرشيون سكان الحرم ، وولاة البيت قبل الاسلام بنحو ٢٠٠ سنة ، وفى عصر النبي والخلفاء الراشدين ، وعصر بنى أمية ، وبنى العباس إلى وقت تدوين اللغة !!

٤ - فوق أنهم كانوا يحتكرون التجارة صادرة وواردة بين اليمن شتاء ، والشام صيفا ، فأثرهم الحيوى ، وتأثيرهم المالى والاقتصادى فى العرب كافة أشبه ما يكون بتأثير اليهود فى تيسير أمور العالم الآن ، وقد رأى الجميع كيف سخروا دول العالم العظمى لمآربهم السياسية !!

٥ - وقد أتاحت لهم الظروف السانحة ، وانتزاعهم مفاتيح الكعبة من خزاعة بزق من الخمر [١] بمساعى قصى أن تكون بيدهم الحجابة ، والرفادة ، واللواء ، والسقاية ، ودار الندوة ، وأن يكون القضاة منهم فيها ، بعد أن كانوا من المزارعة [٢] وسيأتى شرح ذلك مبسوطا :

---

(١) مجمع الامثال للميدانى ج ١ ص ١٩٨ ، والقاموس المحيط مادة غبش
(٢) ص ٤٣٧ من النقائض بين جرير والفرزدق

ألا ترى متى أن تجمع تلك الظروف ، واختلاط قريش بكل القبائل العربية في المواسم والأعياد والرحلات التجارية ، واختيارهم من خطب القبائل وأشعارها أحسن لغاتها وأرق كلامها ، مجتمعاً إلى سلائقهم ، وإلى الرقى الاجتماعي الذي أصبح فيه العرب عند تدوين اللغة العربية .

ألا يسلب كل أولئك حرية الرأي عند علماء اللغة ، ويرجح كفة قريش ، بل يجعل القرشيين أفصح العرب لسانا ، وأوضحهم بيانا ، وألينهم أسلوبا ، وأرقهم تعبيراً ، وأسهلهم لفظاً ، وأعذبهم منطقاً ..!!

(٤) [التاريخ الحق ينصف بني تميم] أما التاريخ الحق فانه لا يعبأ في مثل موقفنا بالظروف السياسية أو الاجتماعية وما إليهما ، لذا تراه ينصف المضريين الأولين قاطبة ، ويرفع عقيرته فخوراً بآثار (بني تميم) خاصة ، ويطنب في الثناء عليهم : مشرعين ، أو مرتجلين . أو قضاة وحكاما ، أو شعراء وخطباء وحكماء ... قبل الاسلام وبعده .

وقد طاب لي أن أرهف السمع لالتقاط ماتزجي من براهين على فضل عشيرتي في النهوض باللغة غير ماتقدم فاكتفيت من السماع بتسجيل البراهين الأربعة الآتية :

(١) أجمع المستشرقون على أن بني تميم (كانوا ذخراً للغة العربية الفصحى في الشعر والبلاغة)

(٢) وروت كتب الأدب أن (ابن عباس) قال : « نزل القرآن على سبع لغات : منها خمس بلغة العجز من هوازن منهم (سعد بن بكر) وجشم بن بكر و (نصر بن معاوية) — وهو ابن بكر أيضا — (وثقيف) — وهو ابن منبه بن بكر كذلك....)

(٣) وأخبرنا (عمرو بن العلاء التميمي) سيد الناس ، وأعلمهم بالعربية والشعر ومذاهب العرب ٢/٢٤٧ مزهر) أن أفصح العرب عليا هوازن و (سفلى تميم)

(٤) وقال ثعلب في أماليه : « إن أبا زيد قال : لست أقول : قالت

العرب إلا إذا سمعته من هؤلاء ؛ ثم ذكر عليا هوازن وسفلى تميم » —
وليس من هؤلاء قريش !!

فكيف ساغ للعلماء بعد ذلك أن ينسبوا الفضل كل الفضل إلى قريش وحدها !! فيما سردته الجواب مع مراعاة أن بين تميم والاسلام أكثر من خمسة قرون ، وبين قصى الجد الرابع للنبي (ص) وهو الذى علا شأن قريش فى زمنه إلى الاسلام قرنان فقط ، والقرنان أقل من الثلاثة ؛ والتميميون أضعاف القرشيين .

(٥) (كيف كان بنو تميم قضاة العرب وحكامهم ؟) :

واستزدت التاريخ روعة لآثار قومى فى عالم القضاء والحكم فقال(١) :
وكان حكام (بنى تميم) فى الجاهلية ستة ـ وذلك قبل أن يجمعوا بين القضاء والحكم فى وقت واحد دون سائر القبائل :

(١) ربيعة بن مخاشن أحد بنى أسيد بن عمرو بن تميم .
(٢) وزرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله
(٣) وضمرة بن ضمرة النهشلى
(٤) وأكثم بن صيفى
(٥) وأبوه صيفى من بنى أسيد بن عمرو
(٦) وآخرهم (الأقرع بن حابس)

ولم يكد ينتهى من حديثه حتى سمعت صوتا من جانب آخر يقول (٢)
ولا تنس أن (حكيمات العرب ثلاث) أولهن جمعة بنت حابس وهى أخت الأقرع بن حابس التميمى

(جمع تميم بين القضاء والحكم) :

وهنا سمعت صوتا يجلجل فى الفضاء ينشد قول جرير مفتخرا :

ونحن الحاكمون على (عكاظ) كفينا ذا الجريرة والمصابا

وإذا بصاحب النقائض يتولى شرح ذلك فيقول (٣) :

---

(١) ص ١٢٩ نقائض جرير والفرزدق .
(٢) القاموس المحيط مادة حكم (٣) ص ٣٢٨

وذلك أن الحكام والأئمة في الموسم كانوا بعبد (عامر بن الظرب) في (بني تميم) فكان الرجل منهم يلي الموسم ، ويلي غيره القضاء ، فكان من اجتمع له الموسم والقضاء جميعا :

(١) سعد بن زيد مناة بن تميم - وهو أبو مزروع الأكبر -

(٢) ثم ولي ذلك حنظلة بن مالك جد جرير والفرزدق .

(٣) ووليه (أبو ذؤيب) بن كعب بن عمرو بن تميم

(٤) وقفاه (مازن) بن مالك بن عمرو بن تميم

(٥) وأعقبه (ثعلبة) بن يربوع بن حنظلة

(٦) وعقبه (معاوية) بن شريف — الجد الرابع لأكثم بن صيفي حكيم العرب .

(٧) وتلاه (جروة) بن أسيد بن عمرو

(٨) وتولى بعده (الأضبط) بن قريع - بن مزروع الأصغر بن مزروع الأكبر -

(٩) ونهض على أثره (صلصل) بن أوس بن مخاشن

(١٠) وكان آخر تميمي جمع بين القضاء والموسم (سفيان بن مجاشع) - الجد الخامس للفرزدق - ، ولما مات افترق الأمر ، ومعنى هذا أنه بعد أن انفرط عقد تلك السلسلة الذهبية المزدوجة لزعامة (بني تميم) ، وجمعهم بين الحكم في دار الندوة ، والقضاء في موسم الحج ، واستيلائهم على الرياسة الادارية والدينية والأدبية وكل ماله علاقة بشئون العرب ، اقتصروا على القضاء وحده ، فلم يجتمع القضاء والموسم لأحد منهم أو من غيرهم حتى جاء الاسلام وكان (محمد بن سفيان) يقضي بعكاظ ، وكان آخر من قضى منهم (الأقرع بن حابس) . ومجموع هؤلاء ٦ + ١ + ١٠ + ١ = ١٨ من القضاة والحكام

فأي قبيلة اجتمع لها مثل هذا العدد من العظاء الذين أجمع العرب على تقليدهم أمورهم في عوالم الجاهلية حتى قريش نفسها!!

وأى سادة كهؤلاء ظهروا فى جزيرة العرب من غير تميم كانت تعنو لهم الجباه خشوعا واحتراما وهيبة وتقديرا ؟ وأى مثقف يشك بعد ذلك فى عظمتهم بعد (ابتكارهم اللغوى) و (تشريعهم الثقافى) و (نهجهم البلاغى) و (شهادة العلماء) من بصريين وكوفيين ومستشرقين ؟ وبعد أن سجل التاريخ الحق أن منهم (أكبر شعراء الجاهلية) أوس بن حجر(١) و (أميرى الرجز) رؤبة والعجاج و (ملكي الشعر) جريراً والفرزدق ، و (أخطب العرب) خالد بن صفوان ، وشبيب بن شيبه (وأحكمهم) أكثم بن صيفى ، (أعمقهم بلاء فى سبيل الله) خباب بن الأرت و (أعلمهم) النضر بن شميل وعمرو بن العلاء و (أحلمهم) قيس بن عاصم والأحنف بن قيس و (أفرسهم) السليك بن السلكة ومالك بن الريب ...

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم ـــ إذا جمعتنا يا (قريش) المجامع !!

٢ - اللهجات المنبوذة :

بعد أن كانت لغة العرب فى الجاهلية كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات ، على الرغم من جهاد المضربين وجهود بنى تميم ، وتلقينهم شعوب العرب وأفخاذها وعشائرها وعمائرها أروع النماذج التى يجب أن تكون عليها لغة أمة حية تريد أن تتبوأ مقعدها اللائق بها تحت قبة السماء ، وبعد أن أجرى الاسلام عملية الخلط والمزج بين الامشاج المتنافرة والقبائل المتعارضة . . بعد كل أولئك بدأ التاريخ يسـجل فصلا آخر من فصول العظمة العربية ، فقام العلماء فى العصر العباسى يضعون لغة عامة موحدة راقية للعرب كافة ، معتمدين على أفصح اللهجات التى توارثوها عن (تميم) و (قيس) و (بنى مدركة) و (قريش) أخيراً ، نابذين تلك اللهجات الهزيلة من لهجات العرب وتلك الجراثيم الدخيلة من لهجات الأعاجم ، فكانوا على الرغم من جهادهم متفرقين أشبه بأعضاء مجمع لغوى منظم !!

(دستور(٢) علماء اللغة) ولم ينس أولئك العلماء أن يقدروا حساب الظروف المكانية وتأثيرها فى اللغة فقرروا :

---

(١) مجلد ٣ من دائرة المعارف الإسلامية (٢) المزهر ج ١ ص ١٢٨

(١) ألا يأخذوا - لتشييد دعائم اللغة المبتغاة - من حضرى قط .

(٢) ولا عن سكان البرارى والأطراف ؛ لأن التاريخ أصدق شاهد على أن الاختلاط بالأجانب من مصادر النكبات القومية وبهاتين القاعدتين وصلت إلينا تلك العربية الفصيحة العامة المبثوثة فى المعاجم وكتب اللغة والأدب .

وفيما يلى أشهر تلك اللهجات المنبوذة التى

سرت لوثة الاعجام فيها كما سرى لعاب الأفاعى فى مسيل فرات

القبائل التى نبذت لهجتها	سبب نبذها
(لخم وجذام وعاملة) من يمن الشمال	مجاورتهم مصر القبطية
(قضاعة وغسان وإياد) » » »	مصاقبتهم أهل الشام
(تغلب وبعض قبائل اليمن الشمالية)	قربهم من اليونان
(بكر) ومن احتطبوا فى حبلهم	دنوهم من القبط غربا والفرس شرقا
(عبد قيس وأزد عمان) ومن انتشر حولهما بالبحرين	اختلاطهم بالهند جنوبا والفرس شمالا
أهل اليمن المشرفون على المحيط الهندى والبحر الأحمر	مخالطتهم الهند شرقا والحبشة غربا
بنو حنيفة وسكان اليمامة والطائف	امتزاجهم بتجار اليمن
حاضرة الحجاز فى صدر الاسلام	ازدحامها بكثير من تجار العرب والعجم

(نماذج من تلك اللهجات)

كنت أشرت فى مقالى الأسبق فى عدد ابريل سنة ١٩٤٧ إلى بعض هذه اللهجات المنبوذة

فالآن أقدم بين يدى أساتذتى وأصدقائى عدة نماذج بعضها من اللهجات المعروفة قديما وبعضها ما عثر عليه رواد النقوش الأثرية من المستشرقين ، سواء منها (لهجات الجنوب) (كالمعينية) و (السبئية) و (القتبانيـــة)

(والحضرمية) أو (لهجات الشمال) مثل (اللحيانيـــة) و (الثمودية) و (الصفوية) نسبة إلى جبال الصفاة فى بادية الشام .

(١) « أل » المعرفة لها ثلاث صور : « ا » أكثر العرب ينطقون بها كما ننطق اليوم وكما كان ينطق العرب النبطيون .

« ب » أما حمير فيقولون فى السفر « امسفر » فهى « الطمطمانية » .

(حـ) وأما فى اللهجتين : « الثمودية » و « الصفوية » فينطقون بها هاه فيقولون فى الملك « هـ م ل ك » .

« والذى » فى اللغة الفصحى يقابله فى « اللهجة الطائية » و « الصفوية » « ذو » فى جميع الأوضاع ، ومن آثارها :

وبئرى « ذو » حفرت و « ذو » طويت

ويؤيد اللهجة الصفوية كشف الأستاذ « أنوليتمان »[١]

«٣» وأما بقية اللهجات الأخرى فمثلها :

١ - « فحفحة هذيل » كقولهم فى الحلم « العلم » .

٢ - و « وكم كلب من ربيعة » كقولهم فى عليكم وبكم : « عليكم وبكم » بكسر الكافين.

٣ - و « وهمهم » كقولهم فى منهم وعنهم : « منهم وعنهم» بكسر الهائين.

٤ - و «عجعجة قضاعة» كقولهم فى تميمى وحجازى «تميمج وحجازج».

٥ - و «شنشنة اليمن » كقولهم فى« كتاب مكة» « شتاب مشة » .

٦ - و « كشكة أسد » كقولهم فى الوقف غالبا فى عليك « عليش أو عليكش » .

وإلى اللقاء سادتى فى العدد التالى إذا شاء الله .

عبد العزيز مزروع الأزهرى
المدرس بالقبة الثانوية

(١) ص ٢٤٧ جـ ٢ من مجلة المجمع اللغوى

النحو بين الالغاء والابقاء

للأستاذ أحمد محمد الحوفى
المدرس بكلية دار العلوم
بجامعة فؤاد الأول

(أولا)

الدعوة إلى إلغاء النحو

منذ خالط العرب الأعاجم ، وتسرب اللحن إلى الفصحى ، حاولوا أن يقفوا تياره بضوابط تدرس وتعلم ، لتعصم الألسنة من الزلل ، وتبصر الناس بأسرار العربية ، ونسق العرب فى كلامهم ، فكان النحو والصرف . ولكن تيار اللحن كان جارفا لا يصد ولا يرد ، ، حتى لقد تسرب إلى القرآن الكريم دستور الشريعة ومعجزة اللغة ، وحتى كان من صفات الكمال فى الرجل أنه لا يلحن ، لقلة من يلحن ، فاتجه بعض القدماء إلى التحرر من الاعراب ، وذهب بعض المعاصرين إلى إلغاء النحو كله جملة .

(١) فكان مهدى بن مهلهل يقول : « حدثنا هشام مجزومة ، ثم يقول ابن ، ويجزمه ، ثم يقول حسان ، ويجزمه ، لأنه حين لم يكن نحوياً رأى أن السلامة فى الوقف » (١) .

(٢) ثم ود ابن خلدون لو تبتكر طريقة تسد مسد الاعراب : « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد ، واستقرينا أحكامه نعتاض عن

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٧٥

عن الحركات الاعرابية فى دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه وتكون لها قوانين تخصها، ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الأول فى لغة مضر. فليست اللغات وملكاتها (مجانا)، ولقد كان اللسان المضرى مع اللسان الحميرى بهذه المثابة، وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى وتصاريف كلماته، تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا، خلافا لمن يحمله القصور على أنها لغة واحدة، ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها »[1].

لكن ابن خلدون لم يدع إلى إلغاء الاعراب إلغاء لا يعوض عنه عوض، على أنه لم يقترح الطريقة التى تسد مسده.

(٣) وكان المرحوم قاسم أمين بك يرى التسكين، وإن لم تظفر دعوته بذيوع ولا نجاح، حتى إنه هو لم يطبقها.

(٤) ومنذ بضعة أعوام نشر الاستاذ أحمد أمين بك مقالا فى (الثقافة). دعا فيه إلى التحرر من الاعراب، لانه يغل القراء، ويعوق الكتاب، ويعوق دون إتقان كثيرين للغة، ويحرم جمهرة الشعب من الثقافة.

(٥) وعلى أثر مقاله ظهر كتاب للأستاذ سلامة موسى عنوانه (البلاغة العصرية واللغة العربية) كرر فيه الدعوة إلى إلغاء الاعراب صراحة ثم ضمنا بدعوته إلى اللغة العامية والحروف اللاتينية: « وليس على التلميذ من حرج أن يقرأ فيرفع المفعول وينصب الفاعل مادام يفهم مايقرأ، أما فى المدارس الثانوية فنشرع فى تعليم أقل مايستطاع من قواعد النحو، ولا نبالى الاعراب الذى أثبت الاختبار أنه لافائدة منه بتاتاً، والوقف فى أواخر الكلمات أى إسكانها هو الخطة السديدة التى يجب أن تتبع ».

« وقد قال هربرت سبنسر إنه لم يتعلم النحو قط، وإنه درس وألف فى هذه اللغة دون أن يحتاج إلى دراسة النحو، ولا يمكن عربيا أن يقول مثل هذا القول عن لغته »[2].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩١

(٢) البلاغة العصرية واللغة العربية ص ١٣٣

« واقتراح عبد العزيز فهمي باشا [يقصد الكتابة بالحروف اللاتينية] يحتاج أولا إلى العمل بإلغاء الإعراب » (١)

على أن الكاتب تبلبل فى دعوته فقال مرة إن إسكان أواخر الكلمات هو الخطة السديدة التى يجب أن تتبع ، وقال مرة : إنه لاضير من رفع المفعول ونصب الفاعل ، والتسكين شيء ، والفوضى فى الشكل شيء آخر .

* * *

وسأبين فى ردى أن نسق العرب وروح اللغة لا يطاوعان القارىء الفاهم على رفع المفعول ونصب الفاعل ، بل ذوق القارىء نفسه مادام قد فهم معنى ما قرأ لا يطاوعه على هذا الخلط ، بدليل أن العرب ـ قبل أن تستنبط القواعد من لغتهم ـ كانوا يرفعون الفاعل ، وينصبون المفعول بالسليقة ، لأن هذه الحركات فى أواخر الكلمات ذات دلالات معنوية على المراد ، وهذه سليقة فيهم توارثوها وتناقلوها كما يأخذ أبناؤنا فى هـذا العهد عنا أوضاع لغتنا العامية .

والنحو ليس لصحة الشكل فحسب ، بل وللتعبير الدقيق عن المعانى ، وللفهم الدقيق لهذه المعانى ، فهو إذن من صميم اللغة وجوهرها .

* * *

ثم بعد تفنيد الدعوة ، أقترح الوسيلة الملائمة لتيسير النحو ، حفاظا على خصائص اللسان العربى ، ومجاراة لما يستطاع .

(١) ص ١٣٨ .

(ثانيا)

الرد على هذه الدعوة

١ - النحو والمعنى

الأسلوب هو طريقة التعبير عن المعنى بوضع لفظ بعد لفظ، وجملة وراء جملة، ولا شك أن ذلك محتاج إلى ربط الجمل بعضها ببعض، وتعليق كلمة بكلمة، كأن نعمد إلى اسمين فنجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أو إلى اسم فنجعله فاعلا لفعل أو مفعول، أو نتبع اسما لاسم على أن يكون الثانى صفة أو توكيداً أو بدلا، أو نجعل فعلا شرطا لآخر بوضع أداة من أدوات الشرط الخ.

أى أن الكلمات تخضع لترتيبها فى جمل إلى ترتيب معانيها فى النفس، والأسلوب الصحيح لا بد أن يخضع لقوانين النحو وأصوله حتى يكون معبراً فى صحة، ودقة عن المعنى المراد.

ولا نجد أسلوباً صائباً فيه مخالفة للنحو، ولا أسلوبا فاسداً إلا جاءه فساده من مخالفة النحو.

فقول الفرزدق:

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

وقول المتنبى:

الطيب أنت إذا أصابك طيبه والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

وقوله:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وقول أبى تمام:

أهن عوادى يوسف وصواحبه فعزما فقدما أدرك السؤال طالبه

كل هذه الأقوال ونظائرها إنما فسد أسلوبها وتعقدت معانيها، لأن

الشعراء خالفوا فيها قواعد النحو ، وتجافوا أصول تأليف العبارة بتقديم وتأخير ، أو حذف وإضمار ليس لهم أن يفعلوه .

ولسنا نستطيع أن نفهم الكلام فوضى لا يسلكه النحو ، ولنجرب ذلك بحل جملة مفهومة ، ووضع كلماتها وضعا لا يرضاه النحو ، ولتكن :

« عيد بأية حال عدت ياعيد ؟ »

فنصيرها : عدت حال عيد بأية ياعيد .

فماذا نفهم منها ؟ لاشيء .

فالفكر لا يتعلق بمعانى المفردات مجردة من نحو يسلكها فى نسق عربى مفهوم ، فشوقى فى قوله .

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

لم يفكر طبعاً فى معنى كل مفرد مستقلا معرى عن وضعه فى الجملة ، بل فكر وعبر بكلمات متماسكة متصلة هذا الاتصال النحوى المعبر عن المعنى . وكل متكلم إنما يقصد من كل كلمة صلتها بغيرها ، وليس من همه أن يعلمنا معانى المفردات مبتورة ، فيقول : « وضعت الحرب أوزارها » ليعلمنا معنى وضعت ، والحرب ، والأوزار .

وحين يستعمل المتكلم الصفة مثلا لا بد أن يفهم أنواع الصفات « وأن ههنا صفة تخصص ، وصفة توضح وتبين ، وأن فائدة التخصيص غير فائدة التوضيح ، كما أن فائدة الشياع غير فائدة الإبهام ، وأن من الصفة صفة لا يكون فيها تخصيص ولا توضيح ، ولكن يؤتى بها مؤكدة . كقولهم : أمس الدابر وكقوله تعالى : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » ، وصفة يراد بها المدح والثناء ، كالصفات الجارية على اسم الله تعالى جده »(١) .

والصفة تؤدى معنى لا يؤديه الخبر ، وهما معا يغايران الحال ، وإن كانت كلها تثبت معنى لما قبلها فانها تختلف فى طريقة ذلك الثبوت .

ولهذا قال ابن يعيش : « وللإعراب الإبانة عن المعانى باختلاف اواخر

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٩ .

الكلم لتعاقب العوامل فى أولها ، ألا ترى أنك لو قلت ضرب زيد عمرو بالسكون من غير إعراب لم يعلم الفاعل من المفعول ، ولو اقتصر فى البيان على حفظ المرتبة فيعلم الفاعل بتقدمه ، والمفعول بتأخره لضاق المذهب ، ولم يوجد من الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الإعراب ، ألا ترى أنك تقول ضرب زيد عمراً ، وأكرم أخاك أبوك ، فيعلم الفاعل برفعه، والمفعول بنصبه سواء تقدم أو تأخر »(١).

وقال ابن فارس فى ذكر مااختصت به العرب : « من العلوم الجليلة التى اختصت بها الإعراب الذى هو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذى هو أصل الكلام ، ولولاه ماميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد » (٢)

وقال فى موضع آخر : « فأما الاعراب فبه تميز المعانى ، ويوقف على أغراض المتكلمين ، وذلك أن قائلا لو قال : « ماأحسن زيد » غير معرب لم يوقف على مراده ، فاذا قال « ماأحسن زيداً ! » أو « ماأحسنُ زيدٍ ؟ » أو « ماأحسن زيد » أبان بالإعراب عن المعنى الذى أراده ، وللعرب فى ذلك ماليس لغيرهم ، فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعانى ، يقولون مفتح للآلة التى يفتح بها ، ومفتح لموضع الفتح ، ومقص لآلة القص ومقص للموضع الذى يكون فيه القص ... ويقولون : جاء الشتاء والحطب إذا لم يرد أن الحطب جاء ، إنما أريد الحاجة اليه ، فان أريد مجيئهما قالوا : والحطبُ »

ولقد بلغ من قدر النحو فى رأى عبد القاهر الجرجانى أن عده المقياس لصحة الكلام كما قدمنا ، وقال : « واعلم أنه ليس النظم إلا أن تضع الكلام الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ... فلست

(١) شرح المفصل للزمخشرى ص ٧٢ ج ١
(٢) عن المزهر – وبعده رد لدعوى أن النحو غير عربى الاصل

بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا ، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه، ووضع فى حقه أوعوامل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل فى غير ماينبغى له » (١)

ومن هنا حرصوا على الاعراب ، وعدوه عنوان الثقافة وللفصاحة والفضل ، وقالوا : « اللحن هجنة على الشريف » و « اللحن فى المنطق أقبح من آثار الجدرى فى الوجه (٢) . وقال عمر : تعلموا النحو كما تعلموا السنن والفرائض » (٣)

وكان الرجل منهم إذا تكلم فلحن سقطت هيبته .

وكان خالد بن صفوان يحسن الكلام ، ويلحن فى الاعراب ، فقال له مرة بلال ابن أبى بردة : « تحدثنى حديث الخلفاء ، وتلحن لحن السقاءات ؟ » ثم كانوا يتوقون اللحن ويحذرونه ، فيروى عن عبد الملك قوله : « شيبنى ارتقاء المنابر ، وتوقع اللحن »

ويروى عن الحجاج بن يوسف ـ على فصاحته وبيانه ـ أنه كان يسأل يحيى بن يعمر النحوى : « أترانى ألحن ؟ » ويشدد عليه أن يبين له مايسمعه منه من لحن .

وقد بلغ من بغضة أبى الأسود الدؤلى الكنانى للحن أنه قال : « إنى لأجد للحن غمراً كغمر اللحم »

فلما وقع اللحن فى القرآن الكريم هالهم ، فبادروا إلى كلماته بنقط يكتبونها فى آخر الكلمة دالة على حركتها ، وكان ذلك عمل أبى الأسود فى النحو وطبقتين من النحاة بعده ، يعربون المصحف أى يضبطون أواخر كلماته بالنقط ، ويرسلون المصاحف فى الناس معربة عاصمة من اللحن . ثم

(١) دلائل الاعجاز ص ٦١
(٢) البيان والتبيين جـ ٢ ص ١٧٢
(٣) البيان جـ ٢ ص ١٧٤

اهتدوا إلى أن هذه الحركات خاضعة لعلل وأسباب مطردة ، وسموا ذلك علل الاعراب أو علل النحو ، ثم علم النحو أو الاعراب ، ثم دونوها ، وجمعها سيبويه فى كتابه .

٢ ـ النحو روح المعنى

لاشك أن المعنى يتمثل فى ذهن المنتج أولا ، ثم تبرزه الألفاظ وتكسوه هذه الصورة التى نسميها التعبير .

وهذه الألفاظ مفتقرة إلى أن تنتظم ، ويسلكها نسق خاص من الأداء ، وهذا النسق الخاص هو النحو .

فلا تعبير صحيح بغير النحو ، ولا معنى بغير تعبير « وإذا نظرنا فى ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا ، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثانى صفة أو حالا أو تمييزاً ، أو تتوخى فى كلام هو لاثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنياً ، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك ... وعلى هذا القياس ، وإذا كان لا يكون فى الكلم نظم ولا ترتيب إلا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوه ، وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللفظ شيء ، ومما لا يتصور أن يكون فيه ومن صفته ـ بان بذلك أن الأمر على ماقلناه من أن اللفظ تبع للمعنى فى النظم ، وأن الكلم تترتب فى النطق بسبب ترتب معانيها فى النفس ، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف لما وقع فى ضمير ، ولا هجس فى خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم ، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل ، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك » (١)

وما من شك فى أن الفكر لا يتعلق بمعانى الكلام مجرداً من النحو ، والمتكلم قبل أن يبرز كلامه لابد أنه فكر فى معانيه فى نفسه ، وربط بين الكلمة والكلمة الأخرى ليعلم السامع شيئاً لا يعلمه ، حتى ليخيل اليه إذا هو

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٥

فكر أنه ينطق فى نفسه بالألفاظ التى يؤدى بها فكرته ، ويكاد يسمعها كما يسمعها حين يلفظها ؛ فالمفردات وحدها مواد غفل ، والتركيب يتناول هذه المواد الغفل فيصوغ منها مادة جديدة يدل بمجموعها على مفهوم ، وهذه الصياغة هى النحو أو هى الأسلوب .

« وإذا نظرنا علمنا ضرورة أنه محال أن يكون الترتب فيها تبعاً لترتب الألفاظ ، ومكتسبا عنه ؛ لأن ذلك يقتضى أن تكون الألفاظ سابقة للمعانى ، وأن تقع فى نفس الانسان أولا ، ثم تقع المعانى من بعدها وتالية لها ... وليت شعرى هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعانى ؟ وهل هى إلا خدم لها ؟ ومصرفة على حكمها ؟ أو ليست هى سمات لها وأوضاعا قد وضعت لتدل عليها ؟ فكيف يتصور أن تسبق المعانى وأن تتقدمها فى تصور النفس ؟ إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامى الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء ، وقبل أن كانت » (١)

وإذا كانت لغة المشافهة الآن فى العالم العربى قد التزمت التسكين ، والتزمت نسقاً خاصاً فى التعبير ، لامفاضلة فيه بين تقديم وتأخير ، وإظهار وإضمار الخ ولا تصرف فيه بين أنواع النسق ، فقد أدى ذلك إلى اللبس فى دلالة الكلمات ، وإلى الخلط بين وظائفها وأنواعها ، وجرد اللغة مما بها من دقة وسمو ، وهوى بها إلى منزلة من التعبير الساذج الفطرى .

وما حدث فى اللغة العربية شر حدث نظيره فى كثير من اللغات ، كاللاتينية التى انقرضت وذابت فى اللغات المتشعبة منها ، فإن معظم هذه القواعد ذو قيمة كبيرة فى بيان وظيفة الكلمات ، وتحديد مدلولاتها ، وتعيين العلاقات التى تربط عناصر العبارة بعضها ببعض ، وقد أدى انقراض هذه القواعد إلى كثير من اللبس والاضطراب فى اللهجات المتشعبة عن اللاتينية (٢)

(١) الدلائل ص ٣٢٠
(٢) علم اللغة ص ٣٠٢

٣ ـ تنوع المعنى تبعا لنسق الكلام

وليس النحو صحة ضبط أواخر الكلمات فحسب ، إنما النحو يتناول كثيراً غير ذلك ، ولذا يتشكل المعنى بالصورة الكلامية الخاضعة للنحو ، فهنا فروق فى معانى هذه التعابير . الجاحظ كاتب

الجاحظ يكتب

يكتب الجاحظ

أكاتب الجاحظ ؟

الجاحظ الكاتب

الكاتب الجاحظ

الجاحظ هو الكاتب

إن الجاحظ لكاتب

ما كاتب إلا الجاحظ

وهنا فروق فى قولنا . مرت الطيارة مسرعة

مرت تسرع

مرت وهى تسرع

مرت وقد أسرعت

مرت طيارة مسرعة الخ

وإذا أردنا نفى الحال استعملنا (ما)

وإذا أردنا نفى الاستقبال استعملنا (لا)

ونستعمل فى المترجح بين الوقوع وعدمه (إن)

ونستعمل فيما نعلم وقوعه (إذا)

وبين حروف العطف فروق ، وبين التعريف والتنكير فروق ، وبين الإظهار والإضمار فروق الخ .

فالمعانى تختلف باختلاف وصف الألفاظ ومواقعها وحالاتها، مثل قولنا.

السلم الدائم عسير

السلم الدائم يعسر

يعسر السلم الدائم

العسير السلم الدائم

العسير السلم الدائم الخ .

ولذا قال أبو العباس المبرد . « ألا ترى أنك إذا قلت . ظننت زيداً أخاك فانما يقع الشك فى الأخوة ، فان قلت . ظننت أخاك زيداً أوقعت الشك فى التسمية »(١).

٤ . النحو نسق عربى فطرى

ولقد يعترض بأن البدوى الذى لم يسمع بالنحو قط لا يتأتى له نظم الكلام على هذا الوجه الذى أردنا ، على أنه أبرع من النحاة نظاماً ، فكيف كان ذلك؟

ونرد على هذا الاعتراض بأن البدوى نظم كلامه ليؤدى المعنى الذى يريده بالفطرة ، وقد استنبط النحاة قواعدهم من كلام العرب ، فالنسق الذى نريده أسبق من النحو ، والنحو ثمرة من ثمراته ، والعبرة بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة المصطلحات .

فاذا عرف البدوى الفرق بين قوله . ارتحلت جملا بازلا ، وبين قوله . ارتحلت الجمل بازلا ، لم يضره ألا يعرف اصطلاح النحاة فى أن بازلا الأولى صفة والثانية حال ، ولو كان جهله بهذه المصطلحات يمنعه العلم بما وُضعت له لكان عسيباً ألا يبين عن أغراضه ، وألا يعرف الفرق بين (ما) التى للنفى ، و « ما » التى للاستفهام ، و « ما » التى بمعنى الذى ، و « ما » التى للشرط الخ .

ألا ترى الأعرابى حين سمع المؤذن يقول . أشهد أن محمداً رسولَ الله « بفتح رسول » أنكر هذا النسق ، لأنه لم يؤدّ معنى ، وقال . صنع ماذا ؟

(١) المقتضب فى النحو ج ٣ ص ٧٩ (عن إحياء النحو ص ١٤٧)

هل أنكر عن جهل بأن النصب أخرج الكلمة عن أن تكون خبراً ، وجعلها والكلمة الأولى فى حكم اسم واحد ، وأن الكلام ما زال فى حاجة إلى ما يتمه ؟ » فان كان ههنا من يزعم أنه قد علم لاتصال الكلم بعضها ببعض وانتظام الألفاظ بعضها مع بعض معانى غير معانى النحو فإنا نقول له . هات فبين لنا تلك المعانى ، وأرنا مكانها ، واهدنا لها »[١] .

وإذا كان بعض الباحثين قد ذهب إلى أن هذه القواعد لم تكن مراعاة فى لهجات الحديث ولا فى لغة الكتابة ، وإنما اخترعها النحاة ليشابهوا اللغة العربية بالاغريقية ـ فإنهم مخطئون ، والأدلة على ذلك كثيرة ، منها أن دقة القواعد وتشعبها لا يدلان على أنها مخترعة ، فاليونانية واللاتينية قديماً والألمانية حديثاً يشتمل كل منها على قواعد لا تقل عن قواعد العربية دقة وتشعباً ولم يقل أحد إنها من اختراع النحاة ، ثم إن اختراع قواعد عمل لا يتصوره العقل ، ولا يقدم عليه مفكر ، إذ القواعد تنشأ وتتكون بالتدريج من اللغة نفسها ، ولم يكن نحاة العربية على علم بقواعد اليونانية ، ومع ذلك فان النحو العربى غير النحو اليونانى فلو كان متأثرا به لشابهه ، ومن الثابت أن علماء البصرة والكوفة كانوا يستنبطون قواعدهم من ملاحظة الأعراب الفصحاء ومشافهتهم ، وقد بذلوا فى ذلك جهدا مشكورا ، وتحروا الدقة والحيطة ، والنقوش التى كشفت حديثا فى شمال الحجاز تدل أقطع دلالة على أن الإعراب كان فى اللغة العربية القديمة ، ثم إن أوزان الشعر وموسيقاه قائمة على ملاحظة هذا الإعراب ، وبدونه ينكسر الوزن الشعرى وتختل الموسيقا وقد وصل إلينا القرآن الكريم ـ وهو قطعى الثبوت والدلالة ـ معرب الكلمات ورسم المصحف العثمانى مع تجرده من الأعجام والشكل يرمز إلى كثير من علامات الإعراب بالحروف (المؤمنون ، المؤمنين) و (رسولا شهيداً ، بصيراً) وقد دون المصحف العثمانى قبل أن يضع نحاة البصرة

---

(١) الدلائل ص ٣٢٣ .

والكوفة نحوهم (١).

فنظام الإعراب أساس فى اللغة العربية نفسها منذ أقدم عهودها، ولم يخترع النحاة إلا استنباط القواعد وتسميتها بأسمائها.

٥ – الحركة دليل المعنى

تمتاز اللغة العربية بأنها تدل بالحركات على المعانى المختلفة – وإن شاركها مشاركة ضئيلة بعض اللغات كما سيجىء – سواء أكانت الحركة فى أول الكلمة أم فى وسطها أم فى آخرها، نحو: مُكْرِم، ومُكْرَم، وفهم، وفهِم، وعَطِش وعَطش، وأَسد، وأسْد الخ.

«فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعانى، يقولون مفتح للآلة التى يفتح بها، ومفتح لموضع الفتح ......» (٢)

«وهذا من الشيوع والكثرة فى اللغة العربية بحيث لانستطيع جمعه، وبحيث نراه أصلا من أصولها، سارياً فى كثير من تصرفاتها، ظاهرا فى سبيل الأداء وتصوير المعانى» (٣).

فهذه العلامات الإعرابية التى تتداولها أواخر الكلمات رموز إلى معان قصدها العرب، وما كانوا ليلتزموها اعتباطا، وما كان لهم أن يحرصوا عليها حرصهم الشديد إن كانت لاترمز إلى معنى فى نفس المتكلم، ويفهمه السامع، ولا سيما أنهم أهل إيجاز وقصد واستغناء عن الفضول، وتخفف مما يمكن التخفف منه.

«فالضمة علم الإسناد، والكسرة علم الاضافة، والفتحة ليست علامة إعراب ولا دالة على شىء، بل هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب» (٤)

---

(١) فقه اللغة ص ١٠٥ – ١٠٦

(٢) ابن فارس – عن المزهر ح ١ ص ٣٢٠ طبعة المرحوم جاد المولى بك

(٣) إحياء النحو ص ٤٦ (٤) الاحياء ص ٥٢

وكان أبو إسحق ابراهيم بن السرى الزجاج يجعل العامل فى المبتدأ ما فى نفس المتكلم من إرادة الاخبار عنه .

وكان تلميذه أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجى يقول : إن الأسماء لما كانت تعتريها المعانى ، وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ، ولم يكن فى صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى جعلت حركات الاعراب تنبىء عن هذه المعانى وتدل عليها ، ليتسع لهم فى اللغة مايريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة »

« (وجوه الأعراب) يريد بها أنواع إعراب الأسماء التى هى الرفع والنصب والجر ، لأنه لما كانت معانى المسمى مختلفة ، وتارة تكون فاعلة ، وتارة تكون مفعولة ، وتارة تكون مضافا إليها كان الإعراب المضاف إليه مختلفا ، ليكون الدليل على حسب المدلول عليه ... وقوله : (وكل واحد منها علم على معنى) يريد الرفع والنصب والجر ، كل واحد منها علم على معنى من معانى الاسم التى هى الفاعلية والمفعولية والإضافة ... فالرفع علم الفاعلية .... فالرفع إنما هو للفرق بين الفاعل والمفعول به الذى يجوز أن يكون كل واحد منهما فاعلا أو مفعولا » (١)

وسيبويه يتحدث عن المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل تحت عنوان (هذا باب المسند والمسند اليه) ، ويقول : « وهما مالا يستغنى واحد منهما عن الآخر ، ولا يجد المتكلم منه بدا ، فمن ذلك الاسم المبتدأ . والمبنى عليه وهو قولك : عبد الله أخوك ، وهذا أخوك ومثل ذلك قولك : يذهب زيد ، فلا بد للفعل من الاسم ، كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر فى الابتداء » (٢).

وقد ذهب الرضى فى شرح الكافية إلى أن الرفع رمز لأن الكلمة عمدة فى الكلام ، والنصب رمز إلى أنها فضلة ، والعمدة ما كان أحد ركنى الإسناد

(١) شرح المفصل ص ٧٢ (٢) الكتاب ص ٧ ج ١

والفضلة ما ليس أحدهما ، فيشمل العمدة المبتدأ والخبر والفاعل ونائبه ، وتشمل الفضلة المفعولات ، والحال ، والتمييز ، والمستثنى » (١)

ثم أن الكسرة علم الاضافة سواء أكانت بحرف جر أم لا ، والمتقدمون مثل سيبويه والمبرد ، وبعض المحققين من المتأخرين كابن الحاجب رأوا أن الجر بحروف الجر إضافة (٢).

والفتحة ليست رمزا لاعراب ، وإنما هى حركة خفيفة سهلة النطق مستحبة عند العرب (٣).

وقال ابن جنى فى الخصائص: « إنما ارتفع الفاعل لاسناد الفعل إليه »(٤)

وقال : « أكثر العلل مبناها على الايجاب بها كنصب الفضلة أو ماشابهها ورفع العمدة ، وجر المضاف إليه » (٥)

وسئل الخليل بن أحمد عن العلل التى يعتل بها فى النحو ، فقيل له : عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقامت فى عقولها علله ، وإن لم ينقل ذلك عنها ، وعللت أنا بما عندى » (٦)

وإذن فقد اتفق النحاة وعلماء اللغة على أن هذه الحركات توجد المعنى ، وتوافق مافى نفس المتكلم من اتجاه وقصد للإبانة .

له بقيـــة

أحمد محمد الحوفى

(١) الرضى شرح الكافية (٢) إحياء النحو ص ٧٣ (٣) إحياء النحو ص ٧٨
(٤) الاقتراح ص ٤٩ (٥) الاقتراح ص ٥٠ (٦) الاقتراح ص ٥٧

أبو يوسف وكتاب الخراج

للأستاذ أحمد أحمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم
بجامعة فؤاد الأول

القاضى أبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم ، جده الثالث سعد بن خبتة الأنصارى ، أحد صحابة الرسول صلوات الله عليه .

ولد بالكوفة سنة ثلاث عشرة ومائة ، من والدين فقيرين دفعابه إلى قصاب يدربه ، ولكنه منذ حداثة سنه كان مولعاً بالاختلاف إلى رجال الحديث والفقه والأدب ، وكانت الكوفة فى ذلك الحين تموج بعلمائها وأدبائها ولم تكن بغداد قد نافستها فى ذلك ، حتى إذا كبر أخذ الحديث عن رجال شهروا بالحفظ والضبط : من أمثال أبى إسحق الشيبانى ، وسليمان التيمى ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وأخذ الفقه عن محمد بن أبى ليلى ، وأبى حنيفة ، ولم تقتصر دراسة أبى يوسف على الحديث والفقه ، بل كان يجيد غيرهما ، قال هلال بن يحيى : كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازى وأيام العرب ، وكان أقل علومه الفقه ، وهو قول ـ لاشك ـ مبالغ فيه ، ولكنه يعطينا فكرة عن ثقافة أبى يوسف ، الذى تمرس . بالأدب : إلى جانب نبوغه فى الفقه والتشريع ، وسنرى أثر هذه الثقافة فى تأليفه . ولم يحفظ التاريخ من أسماء شيوخه فى هذه المواد إلا محمد بن إسحق المشهور بتأليفه فى تاريخ المغازى ، وقد تكون شهرة أبى يوسف بالفقه ، وقيامه بأمر القضاء صرفت الناس عن الاهتمام بمعرفة أساتذته فى غير هذه المادة .

ولعل أعظم أساتذته أثراً فى حياته وتوجيهها الإمام أبو حنيفة ثابت بن النعمان ، فهو الأستاذ الذى أخذ بيده وأعانه حتى شق لنفسه طريق الحياة ، ووصل إلى المجد العلمى وإلى أسمى مناصب الدولة بعد الوزارة ، وهو منصب قاضى القضاة ، ومن المرجح أنه اتصل بأستاذه ، وهو حدث صغير السن ، وأن أستاذه لمح فيه دلائل النجابة ، فشجعه على طلب العلم ، والاستمرار فى الدرس ، بل ربما كان قد ساعده بالمال ، إذا صح مارواه أبو بكر الخطيب البغدادى فى كتابه : تاريخ بغداد ، أن أبا يوسف قال : كنت أطلب الحديث والفقه ، وأنا مقل رث الحال ، فجاءنى أبى يوما ، وأنا عند أبى حنيفة ، فانصرفت معه ، فقال يابنى ، لاتمد رجلك مع أبى حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مستمر وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصرت عن كثير من الطلب، وأثرت طاعة أبى ، فتفقدنى أبو حنيفة رضى الله عنه ، وسأل عنى ، فجعلت أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى عنه ، قال لى : ماشغلك عنا ؟ قلت : الشغل بالمعاش ، وطاعة والدى ، فجلست ، فلما انصرف الناس دفع إلى صرة ، وقال استمتع بها ، فنظرت ، فإذا فيها مائة درهم ، وقال لى : الزم الحلقة ، وإذا فرغت هذه فأعلمنى ، فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى ، ثم كان يتعهدنى ، وما أعلمته بخلة قط ، ولا أخبرته بنفادها حتى استغنيت وتمولت ، ويقال إن أباه مات وهو صغير ،وأن ذلك الحادث كان مع أمه .

أخذ أبو يوسف عن أبى حنيفة وعرف الأستاذ مافى تلميذه من ذكاء فنماه وشجعه ، وظل التلميذ والأستاذ متلازمين طول حياتهما ، يضمر التلميذ لأستاذه عظيم الحب والاجلال ، ويضمر الأستاذ لتلميذه عظيم الحب والتقدير،فأبو يوسف يحمل علم أستاذه ويبين وينشر مذهبه ،ويوضح حججه فى حياته وبعد مماته، ويذكر اسمه مقروناً بالتجلة والاعظام، ويؤلف الكتب كما يروى ـ فى أصول الفقه ،على مذهبه ، حتى قال عمار بن أبى مالك: ما كان فى أصحاب أبى حنيفة مثل أبى يوسف ، لولا أبو يوسف ماذكر أبو حنيفة

ولا محمد بن أبى ليلى ، ولكنه هو الذى نشر قولهما وبث علمهما ، وكان أبو حنيفة من ناحيته يقدر هذا التلميذ الممتاز ، روى حماد بن أبى حنيفة قال : رأيت أبا حنيفة يوما ، وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر ، وهما يتجادلان فى مسألة ، فلا يقول أبو يوسف قولا إلا فسره زفر ، ولا يقول زفر قولا إلا فسره أبو يوسف إلى وقت الظهر ، فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده ، فضرب بها فخذ زفر ، وقال : لا تطمع فى رياسة بلدة فيها أبو يوسف .

صلة الاحترام التى كانت بين هذين الإمامين تجعلنا نرفض فى صراحة تلك الرواية التى رواها ابن خلكان : أن أبا يوسف مضى ليسمع المغازى ، وأخل بمجلس أبى حنيفة أياما ، فلما أتاه قال له أبو حنيفة يا أبا يوسف ، من كان صاحب راية جالوت ، فقال له أبو يوسف : إنك إمام ، وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رءوس الملأ : أيما كان أولا : وقعة بدر أو أحد فإنك لا تدرى أيهما كان قبل الآخر ؟ فأمسك عنه .

نرفض تلك الرواية ، ونعتقد أنها موضوعة من أعداء الرجلين ، ومن العجب أنها منسوبة إلى الشافعى ، فأبو حنيفة أوسع عقلا من أن ينكر على تلميذه طلبه لسيرة الرسول ومغازيه وهمـــا من أعظم منابع التشريع ، وأبو يوسف كان أعظم أدباً من أن يشهر بأستاذه هذا التشهير الكاذب .

وقد رحل التلميذ وأستاذه إلى بغداد بعد إنشائها ، وعرض المنصور منصب القضاء على أبى حنيفة فأشار عليه أبو يوسف أن يقبل هذا المنصب ولكن أبا حنيفة أبى ، إيثاراً منه للخلوص للعلم والدرس ، أما أبو يوسف فقد كان اتجاهه فى الحياة أن يتبع قواعد الدين فى إخلاص على ألا يحرم نفسه لذة الحياة ومتعتها وجاهها ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : رءوس النعم أولها نعمة الاسلام التى لا تتم إلا بها ، والثانية نعمة العافيه التى لا تطيب الحياة إلا بها ، والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا بها ، وهو لذلك لا يجد غضاضة فى أن يجمع بين الدين والدنيا ، وسنرى أنه وفق فى ذلك إلى أبعد مدى .

تثقف أبو يوسف وتبحر فى العلم ، فجلس للتدريس ببغداد ، وأخذ عنه

تلاميذ نابهون كان من بينهم محمد بن الحسن الشيباني راوى مذهب أبي حنيفة وأبي يوسف في كتبه المبسوطة والزيادات والجامع الكبير والجامع الصغير والامام أحمد بن حنبل ، وأقبل عليه التلاميذ يغترفون من بحار علمه ، وارتقى كثير من الأئمة روايته في الحديث ، وطعن غيرهم في روايته ، قال محمد ابن جرير الطبري : « وتحامى حديثه قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرأي عليه، وتفريعه الفروع والأحكام مع صحبة السلطان وتقلده القضاء » ولكن هذه الأسباب التي من أجلها تحامى هؤلاء القوم رواية حديثه ليس لها في واقع الأمر هذا السلطان القوي الذي يحول بيننا وبين الثقة بأحاديثه فمهما غلب عليه الرأي ، ومهما صحب السلطان وتقلد القضاء ، فلن يكون ذلك كله — في رأيي — حافزا له إلى أن ينسب إلى الرسول مالم يقله،ولكن لعل تحاميهم الحديث عنهسببه ان غلبة الرأي عليه تجعله قد يعتمد على حديث ضعيف ، يجد فيه مايؤيد رأيه ، ويوافق مذهبه ، فيستحسنه ، وسنرى عند دراسة كتاب الخراج ماقد يكون سببا من أسباب هذا التحامي .

مات أبو حنيفة عام مائة وخمسين وترك تلميذه أبا يوسف يذيع علمه ، وينقل مذهبه ، ولم يرو التاريخ أن أبا يوسف تقلد أمراً لأبي جعفر المنصور ، فلما تولى المهدي كان نجم أبي يوسف يرتفع واسمه يذيع ، فولاه القضاء سنة ستة وستين ومائة ، وظل في منصب القضاء — على ما يظهر — حتى توفي المهدي ، وخلفه الهادي الذي لم يبق طويلا في الحكم ؛ وجاء الرشيد فأحل أبا يوسف مكانا علياً . أجله وأكرمه ، وكان عنده حظيا مكينا ، يجالسه ، ويأكل معه على مائدته . فولاه القضاء وجعله قاضي القضاة ، وهو منصب لم يشغله أحد قبل أبي يوسف ، فلم يعرف في تاريخ الخلفاء الراشدين ولا في زمن بني أمية وخلفاء العباسيين قبل الرشيد من أطلق عليه ذلك اللقب ولا من تولى هذا المنصب ، فلم يكن لقاضي عاصمة الخلافة في تلك العصور ميزة على سائر القضاة ، وليس له رأي في اختيارهم ، حتى إذا جاء البرامكة في أيام هرون الرشيد أدخلوا هذا النظام في الدولة الاسلامية ،

نقلا عن نظام الفرس الذين كان لهم قاضى قضاة ، جاء فى كتاب التاج المنسوب للجاحظ . ويقال إن سابور لما مات موبذ موبذان وصف له رجل يصلح لقضاء القضاة ، فكلمة موبذ موبذان فى لغة الفرس معناها قاضى القضاة .

وقد روى كثير من المؤرخين أن أبا يوسف هو أول من دعى بقاضى القضاة ؛ قال المقريزى . فلما قام هرون الرشيد بالخلافة ولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم أحد أصحاب أبى حنيفة بعد سنة سبعين ومائة ، فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضى أبو يوسف ، وهذا المنصب يشبه منصب وزير العدل فى عصرنا الحاضر .

وكان من أعمال أبى يوسف أن يمر على القضاة ويتعرف أحوالهم وسيرهم ؛ ومن أظرف ما وقع له ما رواه ابن خلكان من كتاب اسمه اللفيف أن عبد الرحمن بن مسهر ، كان قاضيا على المبارك وهى بليدة بين بغداد وواسط ، فبلغه خروج الرشيد إلى البصرة ، ومعه أبو يوسف القاضى فى الحراقة ، فقال عبد الرحمن لأهل المبارك . أثنوا على عند أمير المؤمنين ، وعند القاضى أبى يوسف ، فأبوا عليه ذلك ، فلبس ثيابه وقلنسوة طويلة وطيلسانا أسود ، وجاء إلى النهر ، فلما أقبلت الحراقة ، رفع صوته ، وقال . نعم القاضى قاضينا ، قاضى صدق ، ثم مضى إلى مكان آخر ، وقال مثل مقالته الأولى ، فالتفت الرشيد إلى أبى يوسف وقال . يايعقوب ، هذا شر قاض فى الأرض ، قاض فى موضع لايثنى عليه إلا رجل واحد ، فقال له أبو يوسف وأعجب من هذا يا أمير المؤمنين هو القاضى يثنى على نفسه ، قال . فضحك هرون ، وقال هذا أظرف الناس ، هذا لا يعزل أبداً . وقد تكون هذه القصة من نسج الخيال ، يراد بها السخرية من هذا القاضى المسكين .

اتصال أبى يوسف بالقضاء قبل هرون الرشيد هو ما عليه أكثر المؤرخين ، وهو ما اعتمده البغدادى فى كتابه . تاريخ بغداد ، وما يشتم من أقوال ابن خلكان ، وإن كان قد روى رواية أخرى يفهم منها أن أبايوسف

لم يل القضاء لغير الرشيد ، ولم يكن الرشيد يعرفه قبل ذلك ، قال ابن خلكان حكى على بن المحسن التنوخى عن أبيه عن جده قال . كان سبب اتصـــال أبي يوسف بالرشيد أنه كان قد قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة رضى الله عنه ، فحنث بعض القواد فى يمين ، فطلب فقيها يستفتيه . فجىء له بأبي يوسف فأفتاه أنه لم يحنث ، فوهب له دنانير ، وجعل له داراً بالقرب منه ؛ ودخل ذلك القائد يوما على الرشيد ، فوجده مغموما ، فسأله عن سبب غمه ، فقال شىء من أمر الدين قد أحزننى ، فاطلب لى فقيها كى أستفتيه . فجاءه بأبي يوسف قال أبو يوسف . فلما دخلت إلى ممر بين الدور ، رأيت فتى حسنا عليه أثر الملك ، وهو فى حجرة محبوس ، فأومأ إلى بإصبعه مستغيثا ، فلم أفهم منه إرادته ، وأدخلت إلى الرشيد فلما مثلت بين يديه ، سلمت ووقفت ، فقال ما اسمك ؟ فقلت . يعقوب ، أصلح الله أمير المؤمنين ، قال . ما تقول فى إمام شاهد رجلا يزنى ؟ هل يحده ؟ قلت لا ، فحين قلتها سجد الرشيد ، فوقع لى أنه قد رأى بعض أهله على ذلك ، وأن الذى أشار إلى بالاستغاثة هو الزانى . ثم قال الرشيد . من أين قلت هذا ، ؟ قلت ، لأن النبى ﷺ قال أدرءوا الحدود بالشبهات ، وهذه شبهة يسقط الحد معها ، قال وأى شبهة مع المعاينة ؟ قلت . ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى ، والحدود لا تكون بالعلم ، وليس لأحد أخذ حقه بعلمه ، فسجد مرة أخرى ، وأمر لى بمال جزيل ، وأن ألزم الدار ، فما خرجت حتى جاءتنى هدية الفتى ، وهدية أمه ، وجماعته ، وصار ذلك أصلا للنعمة ، ولزمت الدار ، فكان هذا الخادم يستفتينى ، وهذا يشاورنى ، ولم يزل حالى يقوى عند الرشيد حتى قلدنى القضاء .

الحكم فى مثل هذه القضية هو ما حكم به أبو يوسف ، فليس للإمام أن يحكم بعلمه ، بل لا بد من شهادة الشهود ، ولكن القصة التى أمامنا منقوضة من أساسها ؛ فمن الثابت أن أبا يوسف ارتحل إلى بغداد مع أستاذه أبي حنيفة منذ أيام المنصور كما أسلفنا ، وقد أشار عليه بتولى القضاء ، ومن غير المعقول

أن يظل أبو يوسف ، وهو أنجب تلاميذ أبي حنيفة ، بل يقول عنه طلحة ابن محمد بن جعفر : إنه أفقه أهل عصره ، ولم يتقدمه أحد فى زمانه ، وكان النهاية فى العلم والحكم والرياسة والقدر ، أقول : إنه من غير المعقول أن يظل هذا العالم الممتاز ، وقد قارب الستين من العمر مجهولا من الرشيد ، والقصة فى حوادثها بعيدة عن العقل ، فإننى أستبعد أن يرتكب إنسان هذا الإثم فى مكان يظن أن الرشيد يغشاه ، ومن هذا الذى يصيد تحت أنف الأسد ؟!

هذه قصة موضوعة أشبه بأقاصيص ألف ليلة وليلة ، وقد يكون الفقهاء واضعى تلك القصة ليبينوا الحكم فيها ، كما نضع نحن الأقاصيص للتلاميذ لأهداف معينة . وفى تاريخ أبي يوسف كثير من هذه القصص التى لا أشك فى أنها مخترعة لا أساس لها .

تولى أبو يوسف قضاء القضاة ، فأحب أن يجعل للعلماء والقضاة سمة خاصة تميزهم ليحفظ لهم وقارهم ، فيقال إنه غير لباس العلماء إلى هيئة خاصة، وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا تميز فيه بين فرد وآخر ، وكان أبو يوسف شديد المحافظة على كرامة القضاء ، حتى ليتجنب ما يمس هذه الكرامة ، وما ينزل بها لدى الناس ، ذكر صاحب الاغانى فى كتابه أن ابن جامع قدم من مكة على الرشيد ، وكان ابن جامع حسن السمت ، يلبس لباس الفقهاء ، فبينا هو واقف على باب يحيى بن خالد يلتمس الإذن عليه أقبل أبو يوسف القاضى ، فلما وقعت عينه على ابن جامع أخذ يحدثه ، ويسأله عن أخبار مكة ، حتى إذا انصرف عنه وأخبر باسمه ومهنته ، جاء أبو يوسف فى اليوم التالى ، ونظر اليه فتنكبه ، وعرف ابن جامع أنه قد أنذر به ، وكان ابن جامع جهيراً ، فرفع صوته قائلا : ياأبا يوسف ، مالك تنحرف عنى ؟ أى شىء وأنكرت ؟ قالوا لك : إنى ابن جامع المغنى ، فكرهت موافقتى لك ؟! أسألك عن مسألة ، ثم اصنع ماشئت ، ومال الناس فأقبلوا نحوهما يستمعون ، فقال : ياأبا يوسف ، لو أن أعرابيا جلفا وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغلظة من لسانه قوله :

يا دارمية بالعليـــاء فالسند أقوت، وطال عليها سالف الأمد

أكنت ترى بذلك بأسا ؟ قال : لا ، قال ابن جامع : فإن قلت أنا هكذا ، ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه ، ثم قال : ياأبا يوسف ، رأيتنى زدت فيه أو نقصت منه ؟ قال : عافاك الله ، أعفنا من ذلك ، قال: ياأبا يوسف أنت صاحب فتيا ، مازدته على أن حسنته بألفاظى فحسن فى السماع ، ووصل إلى القلب ، ثم تنحى عنه ابن جامع .

لاريب عندى فى أن الحق مع ابن جامع ، ولكن محافظة أبى يوسف على أبهة القضاء هو الذى دفعه إلى مافعل ، مع أن أبا يوسف لم يكن من المتزمتين ـ كما سنرى ـ بل كان يكره التعصب ، واسع الصدر .

تاريخ أبى يوسف فى القضاء تاريخ مشرق ، وقد أعانه على النبوغ فيه ذكاء مفرط ، وإطلاع واسع وثقافة ممتدة الجوانب واسعة الأطراف ، وسنرى عندما ندرس كتابة الخراج ما كان يعتمد عليه من الأدلة ، وما كان يسوقه منها لاستنباط أحكامه ، وسنرى إن كان مجتهداً مطلقا أو مجتهداً فى مذهب أبى حنيفة فحسب ، فإن دراسة هذا الكتاب سترينا خطة أبى يوسف

مواهب أبو يوسف ومؤهلاته ونظرته إلى الحياة وقد تحدثناعنهاسابقا ، فذكرنا أنه كان يجد المثل الأعلى فى الجمع بين الدنيا والدين ـ دفعته إلى أن يصل إلى هذا المنصب الممتاز الذى جمع فيه الجاه العريض والثراء الضخم ، وقد انقسم الناس فى أمره ، كما ينقسمون فى أمر كل عظيم ، فمن قائل : إنه وصل إلى المجد بجدارة وكفاءة ، لم يفرط فى أمر دين ، من أجل سلطان ولا وزير ، وهؤلاء هم الجم الغفير من المؤرخين ، وهناك أخرى ، إما حاسدة له على ماوصل إليه من المجد وبعد النفوذ ، وإما متزمتة ترى أن العالم الحق هو من ينصرف إلى العلم لا يبغى به غير وجه الله ، وقد غاله بعضهم فى كراهية أبى يوسف وذمه ، حتى نفى أنه يصلح للفقه ، ونسبه إلى التصحيف والجهل ، وتجد فى كتاب تاريخ بغداد كثيرا من هذه الآراء فيروى عن بعضهم أنه كان يقول : إنى لأستثقل مجلساً فيه ذكر أبى يوسف ، وقال رجل لابن المبارك : أيهما

أصدق : أبو يوسف أو محمد ؟ قال : لاتقل : أيهما أصدق ؟ قل : أيهما أكذب ؟ وغالى بعضهم فى ستة وست أستاذه أبى حنيفة . ولقد تورع ابن خلكان عن نقل هذه الآراء فى كتابه . ولكن يظهر لى من روايات البغدادى أن الطائفة الناقدة لأبى يوسف فى حياته كانت طائفة لها حسابها ، وقد ناله منها بعض الأذى .

ولعل أكبر ماجلب عليه التعصب ضده هو أخذه بالرأى والقياس ، وأعماله الفكر فيما بين يديه من النصوص ، ولكنه ـ كما سنرى ـ كان يلجأ إلى النص ، ويتخذه حجته فى أكثر الاحيان ، ولا يخالفه مخالفة صريحة ، ويحب أصحاب الحديث ويميل إليهم ، وهو إلى جانب ذلك كله ، ما كان يصدر فى رأيه إلا عن عقيدة وإيمان ، وكان هذا الايمان راسخا فى قلبه ، لا تعصف به نوازغ الشهوات ، وإن مقدمة كتابه . الخراج . والكتاب نفسه ليدلان على نفس مؤمنة حقا ، مخلصة فى إيمانها ، وكل الروايات التى رويت عنه ؛ لا سيما فى أخريات أيامه تدل على نفس مطمئنة لما قدمت فى حياتها . قال محمد بن سماعة . سمعت أبا يوسف فى اليوم الذى مات فيه يقول . اللهم إنك تعلم أنى لم أجر فى حكم حكمت به بين عبادك متعمداً ، ولقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك ، وكل ماأشكل على جعلت أبا حنيفة بينى وبينك ، وكان عندى والله ممن يعرف أمرك ، ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه .

كان أبو يوسف ذكيا يستطيع أن يستنبط من النص مايستطيع سواه ان يستنبطه ، سأله مرة احد رواة الحديث عن مسألة فأجابه فيها ، فقال له من اين جئت بهذا ؟ فقال ابو يوسف : لحديثك الذى حدثتنا به انت ثم ذكر له الحديث ، فقال له : يايعقوب ، إنى لأحفظ هذا الحديث قبل ان يجتمع ابواك ، فما عرفت تأويله حتى الآن .

وكان الى جانب ذكائه حاضر البديهة ، يستطيع ان يتخلص بسهولة من المآذق التى فيها ، روى انه جىء إلى ابى يوسف بمسلم قتل ذميا ، فأمر ان يقاد به ، وحدد يوما لذلك ، وأمر بالقاتل فحبس ، فلما كان اليوم الذى حدده

حضر أولياء الذمى ، وجىء بالمسلم القاتل ، فلما هم أبويوسف أن يقول : قيدوه ، رأى رقعة قد سقطت فتناولها صاحب الرقاع ، وخنسها فقال له أبو يوسف ماهذه التى خنستها ، فدفعها اليه فاذا فيها أبيات شعر ، قالها أحد شعراء بغداد :

ياقاتل المسـلم بالكافر جرت ، وما العادل كالجائر
يا من ببغداد وأطرافها من فقهاء الناس أو شاعر
جار على الدين أبو يوسف إذ يقتل المسـلم بالكافر
فاسترجعوا ، وابكوا على دينكم واصطبروا فالأجر للصابر

فركب أبو يوسف إلى الرشيد وحدثه بالقصة وأراه الشعر ، فقال له الرشيد : اذهب فاحتل ، فلما عاد أبو يوسف إلى داره ، وجاءه أولياء الذمى يطالبونه بالقود ، قال لهم : ائتونى بشاهدين عدلين ، أن صاحبكم كان يؤدى الجزية ، فعجزوا فلم يحكم أبو يوسف بالقود .

لست هنا فى معرض حكم الدين ولا فى صدد بيان المذاهب المختلفة فى هذه المسألة ، ولكننى أريد فقط أن أبين سرعة بديهة قاضى القضاة ، فبهذه البديهة السريعة استطاع أن يتخلص من ورطة ربما أدت إلى ثورة ببغداد .

وإن شهرته بهذه البديهة السريعة جعلت الناس ينسبون إليه قصصا نجد بعضها مروياً فى كتاب حضارة الاسلام في دار السلام ، وفى كتاب تاريخ بغداد ووفيات الأعيان ، ومنها مالا يصدقه العقل ولا يطمئن إليه ، ولكن حسبنا أن نعلم أن ذلك العصر هو عصر الرشيد الذى تفنن فى تصويره أخيلة القصاص ، فاخترعوا ، ونسبوا إليه كل طريف عجيب ، ونال أبا يوسف من ذلك حظ غير يسير .

كان أبو يوسف غير متزمت فى الدين ، فهو كثيراً ما يخيرك بين أمرين ، إن فعلت واحداً منهما كنت غير آثم ، ولعل هذا من الأسباب التى حببت فيه الخلفاء وقربته منهم ؛ غير أننا نقف وقفة عند هذا الخبر الذى رواه أبو عبد الله اليوسفي من أن زبيدة زوج الرشيد كتبت إلى أبى يوسف :

ما ترى فى كذا ؟ وأحب الأشياء إلى أن يكون الحق فيه كذا ، فافتاها بما أحبت فبعثت إليه بهدية ثمينة . نقف عند هذا الخبر ؛ فقد يكون سلاحا فى أيدى أعدائه الذين يظنون أنه ما وصل إلى منصبه إلا بتتبعه ما يرضاه الأمراء وتلمسه العلل والأسباب لتبرير ما يعملون .

نقف عند هذا الخبر ، ولا نقطع بكذبه ، ولكننا نؤكد أن موافقته زبيدة ـ إن صحت ـ لم تكن موافقة هوى ، وليس ثم ما يمنع من أن يكون هوى زبيدة متفقا مع هوى الدين ، ومن المؤكد أنه لو كان ثمت خلاف بينهما لآثر أبو يوسف أن يميل إلى جانب الدين ، كما ينطق بذلك كتاب الخراج .

إلى جانب فضل أبى يوسف وعلمه ألمح أنه كان بخيلا ، فالروايات التى تروى عنه ، تؤكد هذه الناحية من نواحى أخلاقه ، وكان محبا للمال ، حتى ليتهمه أعداؤه بأنه كان يعطى أموال اليتامى مضاربة ، ويجعل الربح لنفسه .

ظل أبو يوسف قاضى القضاة طول المدة التى عاشها فى عهد هرون الرشيد ، ولعله فى هذه المدة لم ينقطع عن التدريس ببغداد حيناً ، وبالبصرة حيناً آخر ، وعاش سعيدا مكرما حتى إذا كان يوم الخميس لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائة ، صعدت روحه إلى خالقها ، وترك من بعده ابنه يوسف الذى كان قاضيا بالجانب الغربى من بغداد فى حياة أبيه وكتاب الخراج الذى ألفه لأمير المؤمنين هرون الرشيد .

(له بقية)

أحمد أحمد بدوى

الموسيقى والغناء
وأثرهما فى ترقيق الشعور

للأستاذ طه خطاب
المدرس بحلوان الابتدائية للبنات

قد يتبادر إلى الذهن عند قراءة هذا العنوان أنى فنان أو موسيقى ، أو من الذين يستطيعون أن يرفعوا عقيرتهم بعبقريات الأغانى ، ولكن الحقيقة الناصعة أنى لست واحدا من هؤلاء ، ومع هذا فإنى استطيع أن أحس وأشعر ، وأن أعبر وأصور ، وأن اتخيل ، وأسبح ، وأن أجمع بين الشقائق والنظائر فى هذا الفن الجميل .

* * *

فالموسيقا والغناء كانا فى أول عهدهما مقصورين على الصوت الطبيعى ، حتى تنبه الأنسان على سبيل الاتفاق والمصادفة إلى اختراع الآلات والمعازف عند سماعه صفير الهواء المتولج من الخصاص والثقوب ، فاستعمل للنفخ أنابيب القصب و وللعزف أوتار القسى ونحن إذا أمعنا النظر وأرهفنا الأذن لما يبدو ماثلا أمام أعيننا فى الطبيعة من ثروة الجمال ، رأينا الروعة والبهجة والسحر مما يعبر لنا عن دقة صنع الخلاق العظيم والانسجام الموسيق والتناسق والتناسب بما نسمعه من هديل الهزار وتغريد الكنار ، وصدح اليمام ، وخرير الانهار ، وحفيف الأشجار ، وتنهدات نسيم الأشجار ، وهطل الوبل ، وحركات المد والجزر وهبوب الرياح ، وغير كل هذا مما يعبر عنه بموسيقا الأكوان .

هذا والموسيقا على رأس الفنون الروحية ، وهى وثيقة الصلة ، وطيدة العلاقة بمختلف الفنون فالمنظر الطبعى الأخاذ يشترك فى التعبير عنه الموسيقى بلحنه الجميل الناطق ،والرسام فى إخراج لوحاته الفنية الرائعة ، والشاعر فى صوغه له على شكل قصيدة عصماء تحفل بصوره ، وتزهو بألوانه ، وتموج بمعانيه .

وبهذه المناسبة فالقطع الأدبية شعرية أو نثرية لاتفعل فى النفس فعل السحر الحلال إلا إذا تناسقت ألفاظها ، وتآلفت نغماتها ، وكانت ذات جرس ورنين موسيقى يجعلها خفيفة الوقع ، جيدة السبك ، ولهذا فالأدب والموسيقا متآلفان منقديم الزمان وقد أدى تآلفهما إلى إنعاش الادب أولا وانعاش الغناء ثانيا ، وما مجالس الغناء بالأشعار، وحفلات الانشادوالطرب ببعيدة عن الأذهان ، وخاصة فى العصر العباسى الذى راجت فيه هذه المجالس ، وشجع ملوكه المغنين والشعراء ، حتى أتوا بالمعجز المعجب والمفرح المطرب فى هذا المضمار .

وإذا كان العلم يهذب النفوس ، ويصقل الأذهان ، ويربى العقول ، والرياضة البدنية تقوم ما اعوج من الأجسام ، وما احدودب من الظهور ، فإن الموسيقا ـ وهى لغة الشعور ـ ترقق الحواشى ، وتشذب العواطف ، وتخاطب الوجدان ، وتناجى الاحساس وكذلك الغناء فإنه من أبلغ الوسائل فى تأدية الأدب الرفيع ، وهو المزاج العذب الفرات الذى يبثون به الادب فى النفوس ، وهو الوسيلة العظمى التى يشجعون بها الجبان ويصبرون الحزين ويشحذون بها الهمم الخامدة، وينَدون الاكف الجامدة ، ويبلغون بها أقصى مايريدون من المعانى السامية .

وقد قال أفلاطون فى فضائل الموسيقا : إنها غذاء النفس ، ومبعث الاتزان والفطن ، وهى عطية آلهة الفنون الحرة التى تحول مافينا من شاذ متنقل إلى محكم ثابت، وترد كل تنافر إلى جناس متناسب ، وتبصرنا طريق الهدى والرشاد .

ولما كانت الموسيقا من الفنون الروحية التى توقظ المشاعر ، وترهف الحس ، وكانت رسالة الاديان هى السمو بالروح عن حضيض المادة فقد احتضنت الاديان فنون الموسيقا لأن فيها غذاء للارواح ، وهى - فوق هذا - سلسبيل القلوب ، وصقال النفوس ، وروضة الاذهان .

ومما هو جدير بالذكر أن الموسيقا والغناء متعتان مشروعتان لا يأباهما الدين ولا تنكرهما الشريعة مادام الغرض منهما هو الترفيه عن النفس المكدودة ، وتهدئة الخاطر المبلبل ولندع مايتشدق به المتزمتون من أن الدين ينكرها ، والشرع لا يبيحها ، وحسبنا فى تفنيد زعمهم أن بعض الشيوخ من السلف الصالح قد استدلوا على إباحة الغناء وسماع الموسيقى بأحاديث شريفة صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنها ماروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل على أبو بكر رضى الله عنه وعندى جاريتان من جوارى الانصار تغنيان بما تقاولت به الانصار يوم بعاث فقال أبو بكر : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ؟ وذلك يوم عيد فقال رسول الله ﷺ : يا أبا بكر إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا ،

وروى عنها أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى تدففان وتضربان والنبى (ص) متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف النبى عن وجهه وقال : دعهما ياأبا بكر فانها أيام عيد ، وتلك الأيام أيام منى .

ومما رواه مسلم عن جابر قال : زوجت عائشة رضى الله عنها ذات قرابة لها رجلا من الانصار فجاء رسول الله (ص) فقال : أأهديتم الفتاة ؟ قالوا : نعم قال : هل أرسلتم معها من يغنى ؟ فقالوا : لا ، فقال رسول الله : إن الأنصار قوم فيهم غزل فلو بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمراء لم نحلل بواديكم

أما عن سماع الموسيقا فقد روى عن عائشة أن رسول الله سافر سفرا فنذرت جارية من قريش لئن رده الله تعالى : أن تضرب فى بيت عائشة

بدُف" ، فلما رجع رسول الله جاءت الجارية فقالت عائشة لرسول الله : فلانة ابنة فلان نذرت لئن ردك الله تعالى أن تضرب فى بيتى بدف قال : فلتضرب .

وقد روى أن الامام أحمد بن حنبل كان لا يحدث حديثاً إلا بعد أن يغنى على عود .

وورد فى التوراة : سبحوا الرب بالمزمار والقيثارة ، وعند قراءة القرآن قال النبي (ص) حسنوا القرآن بأصواتكم فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا ، وكان داود عليه السلام يقرأ مزاميره بالألحان حتى إن بعض الطيور كانت تقع وتموت من شدة الطرب لأنه كان حسن الصوت .

على أن « مارتن لوثر » اللاهوتى القدير قد أبان للملأ الوظيفة المهمة التى تؤديها الموسيقا فى المجتمع من إلانة الطباع وتهذيب الأخلاق ، وقال على رءوس الاشهاد : إنى أفسح بكل سرور للموسيقا بعد علم اللاهوت المكان اللائق بها .

من هذا نعلم أن الأديان قد شجعت الموسيقا والغناء إذا كانا لاراحة الخواطر المكدودة ، والأعصاب المرهقة ، وقد تنبه الناس من بعيد لاستخدام الموسيقا فى معالجة بعض العلل العصبية والعقلية ، وأقدم ما يروى من ذلك ما كان من أمر « شاول » ملك بنى إسرائيل حين تخبطه روح السوء وكان داود يضرب له بالعود فيجد روحا .

ويروى عن فيليب الخامس أحد ملوك أسبانيا أنه اعتراه مس ، وكانت الملكة تعرف شدة ميله إلى السماع فأرسلت إلى « فارينلى » الموسيقى الشهير فى مدريد تستقدمه . وأقامت له مجلس سماع فى دار تجاور مقام الملك ، فلما سمع الملك أول فصل من غنائه حصل عنده تنبه كمن استيقظ من نوم عميق ، وفى الفصل الثانى طرب وارتاح وأمر بأن يؤتى « بفارينلى » وبعد ما غنى بين يديه أثنى عليه وجامله وأمره أن يقترح عليه ما يتمنى .

وذكر أحد أطباء « بطرسبرج » أن وليدة لها من العمر أربع سنوات

كانت تخاف بالليل فأشار على ذويها أن يعالجوها بالغناء فكانت أمها تجلس بجانب سريرها وتغنيها بصوت منخفض فلا تلبث أن تسكن إلى صوتها وتنام ولم يأت على ذلك شهر حتى شفيت تماما .

ولا يجهل أحد ما للنغم من تأثير فى العصب بالتسكين مرة والتهييج مرة أخرى حتى إن الجندى يقتحم الموت غير مبال ، والبعير ينشط على صوت الحداء إلى غير ذلك مما هو مشهور ، وقد ذهب بعضهم إلى أن للسماع تأثيرا فى دورة الدم ، وذكروا أن أعظم الأنغام تقوية لدورة الدم أكثرها ألفة عند العليل ، فاذا كانت الأنغام مفرحة دق معها النبض وقوى ازدواجه وبعكسها الأنغام الشجية فان النبض معها يكون عريضا لتأثيرها على العصب الممدد للأوعية .

ونقل عن بعض أطباء اليونان أن الموسيقا تشفى من الطاعون ، ولدغ الهوام - والسل والنقرس والكلب ، وذهب غيرهم إلى أبعد من ذلك ، فزعم « بورتا » أنه إذا اتخذت المعازف من خشب العقاقير الطبية وضرب بها على سماع العليل فعلت فعل الدواء نفسه .

والذى عليه علماء منافع الأعضاء اليوم، أن النغم لا يخلو من تأثير فى أصحاب الأمراض العصبية والعقلية ، وقد اختار ذلك « المسيو لابورد » ، وهو ممن اشتهر فى استخدام النغم حتى فى خلع الأضراس .

وقيل منذ القدم إن الموسيقا تجرى فى الجسم ، وتسرى فى العروق ، فيصفو لها الدم ويرتاح لها القلب ، وهى من الأدوية المفيدة فى علاج بعض الأمراض النفسية والعقلية .

وفى هذا العصر قرر المجمع الطبى الدولى إدخال الغناء والموسيقا إلى المستشفيات بعد ما تبين له من نتائجهما الحسنة ، وتأثيرهما الفعال فى المرضى والإسراع فى شفائهم .

وقديما أبدع الإغريق فى صناعة الغناء أيما إبداع ، وتوسلوا به فى قضاء الحوائج حتى كان إذا دجا ليل الفتنة استدعوا زعماءها إلى حفلة غناء، وأسمعوهم

النصائح بلسان الغناء والموسيقا فتلين طباعهم ، ويكبح جماحهم ، وتسكن شرتهم ، وتخضد شوكتهم .

ولقد دل الاختبار على أن الطفل الرضيع يدهمه الحزن وتخنقه العبرة ويركب رأسه فى العناد ثم يبرح به البكاء فتغنيه أمه «نم ياحبيبى بسلام مثلا» فيهدأ مضطرب مزاجه ، وتسكن ثورة لجاجه ، وينام آمنا مستريحا ، وذلك لان نفثات الغناء كالسحر تشجيه وتنسيه أحزانه .

إذن فالموسيقا والغناء يفعلان فى النفوس فعل الدواء الناجع والبلسم الشافى ، ويردان إلى الناس الطمأنينة الغاربة والصحة العازبة ، ويمثلان دور الطبيب النطاسى والمداوى الآسى .

ونحن إذا أمعنا النظر ، ودققنا البحث وجدنا أن الموسيقا لم تؤثر فى الانسان فحسب ، وإنما تعدته إلى الحيوان فكبحت جماحه ، وألانت طماحه وذللت عاصيه ، وروضت نافره ، فما يروى فى خرافات اليونان أن « أرمنيوس » كان يتسلط بأغانيه على الوحوش الضارية فيجعلها أطوع من بناته ،

وقال « بوسيه » المؤلف الفرنساوى مؤكداً أن ضابطا من ضباط « الباستيل » كان سجينا ، فلما اشتدت به الوحشة ، وألهبه السأم ، كان يعزف على الناى فكانت تخرج إليه فأرة من أحد الاحجار ترقص على نغمة فسر الضابط بهذا المنظر ، وجعله مسلاة بدد بها وحشته ، وسرى بها عن نفسه .

وقد روى أن من أفاعى الهند هامة كثيرة الفتك بالسكان يسمونها «الكبرى» تعد ضحاياها كل عام بالآلاف ، وهى مع شدة جموحها وعدوانها يذللها الغناء فاذا سمعته وهى فى أعماق أجحارها تخرج متهادية ثم تنصب درقتها نحو المغنى وتهتز يمنة ويسرة على رنين النغمات وتتخدر فيها أعصاب الحذر فتستسلم للصيادين .

وثبت أن الحيات تكثر حيث يكثر الغناء والصفير ، وقد حدث أحد المتخرجين فى إحدى كليات بيروت ، أنه وبعض زملائه عثروا على حية

صغيرة فقبضوا عليها ، وأراد أن يمتحنوا فيها هذا الأمر فجاءوا بها إلى فناء واسع وأطلقوها ، وكان أحدهم إذا عزف على معزف تقف ، وإذا توقف عن العزف تسير ، وقد امتحنوا ذلك مراراً وهم بعيدون عنها فصح امتحانهم. وقد ورد فى إحدى صحف بيروت أن قسيساً يقال « داويس » كان له ولد فى سن الرابعة فدنا الولد من أسد مسلسل لبعض الجيران ، وكان من أشرس السباع إلى أن صار عند براثنه نخفقت لذلك قلوب الحاضرين ، ولم يكن هناك من يجترىء على إنقاذه ورأت ذلك فتاة كانت فى غرفة مشرفة على موضع الأسد ، فأسرعت وأخذت توقع على آلة موسيقية اللحن المعروف « بملك الآجام » فسر الأسد سروراً ذهل به عن فريسته ، والتفت إلى جهة الصوت مصغياً فذهب الولد مطمئناً كأن لم يكن ما يخشاه ، ولكن العجيب فى هذا الأمر أن الطفل لما بلغ البيت وسمع البكاء وشاهد الاضطراب من أجله صرخ وبكى !

وأغرب من ذلك أن للغناء تأثيراً فى البقر ، فإذا كانت الفتاة التى تحلب البقرة تغنى تحتها فى أثناء الحلب غناء شجياً فلا شك أنها تدر لبناً يزيد مقداره على المعتاد بنسبة ٢٥ ٪ ، وكذلك الخيل فإنها مشهورة بالرقص على أنغام الموسيقا .

ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد، أن ذهبت بعض السيدات الأمريكيات إلى إحدى دور « السينما » فى أمريكا واشترت تذكرتين « للسينما » ، واحدة لها والأخرى لكلبها ولما سئلت فى ذلك أجابت بأنه يحب موسيقا « الأوپرا » ويجب أن يجلس لسماعها جلسة مريحة .

هذا هو تأثير الموسيقا فى الحيوان الأعجم البليد الاحساس الفاقد الشعور ، فكيف بتأثيرها فى الانسان الذى يموج بالعواطف والأحاسيس، ويزخر بالشعور والانفعال والوجدان ؟ إن الموسيقى تذهب فى تأثيرها للإنسان إلى مدى بعيد واسع بحيث يتمايل عجباً ، ويترنح طرباً ويهتز سروراً ، وقد رأى بعض المربين أن الأغانى والموسيقا تنشران بسرعة البرق على

ألسنة الناس متعلمهم وجاهلهم فرأوا أن تلقن الفضائل والمبادىء القومية، والنعرة الوطنية بوساطة الموسيقا، وقدقطعوا فى هذا البحث أشواطاً بعيدة.

والموسيقا بعد هذا كله تنشط النفس. وتشجع الجبـــان، وتقوى الضعيف، وتخف بها الحركات، ولم تخف أهميتها على قادة الجيوش منذ القدم، فكانوا إذا ساروا بعسكرهم وضعوا فى الطليعة فرقا خاصة تنفخ فى الأبواق، وتقرع الطبول فتثور عاطفة الحماسة فى صدور الجنود ويلهبهم حب الانتصار والفوز فيقتحمون الموت غير مبالين، ويغالبون الجوع والعطش، ويدافعون عن أوطانهم بقوة تفوق قوتهم.

وقال الرحالة «بروس» إن الناى الحبشى إذا عزف فى ساحات الوغى كان باعثاً على تحميس الجنود الأحباش إلى حد الهوس والجنون، وقال مؤرخ ألمانى عظيم «إن عزف المرسلياز فى الحرب أثار فى نفس الجنود الفرنسيين حماسة وشجاعة كانت سبباً فى قتل خمسين ألفا ألمانيا» ويقول بعض المؤرخين إن نابليون عزا هزيمته فى روسيا إلى الشتاء أولا وإلى موسيقا الجيش الروسى ثانيا.

وقد استغلت الموسيقى فى توجيه الشعوب توجيها اجتماعيا صالحا، توجيها يقودها إلى طرق الهداية والرشاد، لأنها تنبه فيها عواطف الخير، وتوقظ الضمير فتحرك الأريحية، وتنشط الهمم الخائرة، والعزائم الراكدة.

ويروى أن معاوية بن أبى سفيان سأل عبد الله بن جعفر عن سبب تحريك رأسه عند سماع الغناء فقال إننى أجد فى نفسى ياأمير المؤمنين عند سماع الغناء أريحية لو لاقيت عندها لأبليت، ولو سئلت عندها لأعطيت.

والموسيقا توحى بتهدئة المزاج الثائر، والغضب الفائر، فقد حدث أن قامت فى «فينا» ثورة من الثورات الكبيرة التى كان الفقراء يضرمون نارها طلبا للقوت، فنهبت المتاجر والمخازن ووصلت طلائع الثوار إلى القصر الامبراطورى مهددة بالدخول إليه واتفق أن كان هنالك الموسيقى المشهور

« جوهان شتراوس » يعلم فرقته وإذا بأحد الأمناء يهرع إليه صائحا . الغوث ! الغوث ! : إن الدهماء تحطم زجاج النوافذ وتهدد بالويل والثبور ، ولم يعد الحرس قادرين على صدهم، وفى الحال خرج الموسيقى وأفراد فرقته ، وأمرهم بالعزف فبهت الثوار لروعة الموسيقا وراقهم ماراوه من انتظام سير الفرقة الموسيقية ولباسها وحركاتها وكأنها أوحت إليهم شيئا فما لبثوا ان غفلوا عماهم فيه وأنصتوا إلى ذلك اللحن للطرب الذى يسحر الألباب، ثم أحاطوا بالفرقة الموسيقية وساروا وإياها صامتين فقادهم « شتراوس » من شارع إلى شارع بعيداً عن القصر وهكذا أخمدت الثورة بلا سلاح غير الموسيقا ، وبلا ضحايا سوى النغم .

وعقب انتهاء الحرب الأخيرة فى أوربا حظر الحلفاء على الألمان غناء أو عزف الأناشيد الموسيقية الألمانية بجانب منعهم من حمل السلاح ، ومن هذا نعلم ماللموسيقا من أثر فى نظر الأمم المتحضرة ، إذاً فخطر الموسيقا كخطر السلاح .

وكثيرا ماقال « هتلر » لصحبه : إن من أراد أن يعرف المانيا الاشتراكية فعليه أن يعزف أولا موسيقا « واجنر » والعمال يطول بهم زمن العناء البدنى فيستأنسون بالغناء ويزدادون به قوة وإقداما كما أن إنتاجهم يزداد بنسبة ١١ ٪ على حسب ماأثبتته التجارب .

وقد يلهى الغناء أرباب المهن الدنيئة عن مزاولتها ، قال لص عن نفسه : دخلت ذات ليلة فى ملهى موسيقى لأترقب فرصة السرقة ، ولما ارتفع صوت الغناء الشجى غاب صوابى وألهانى الإنصات له عن مزاولة مهنتى فخرجت من الملهى مملوء الأذنين ، صفر اليدين ، عائدا بخفى حنين وبعد هذا وغير هذا فالغناء والموسيقا هما رى الصادى ، وغذاء الطاوى ، وزاد المسافر وعلالة المقيم ، ونقل المبرد عن عمر الوادى أنه قال : أقبلت من مكة أريد المدنية فجعلت أسير فى مرتفع من الأرض فسمعت غناء لم أسمع بمثله ، فانحدرت إليه فإذا عبد أسود فقلت له أعد علي ماسمعت فقال لى : والله لو كان عندى

قرى أقريك به مافعلت ، ولكنى أجعله قراك ، فإنى ربما غنيت هذا الصوت وأنا جائع فأشبع ؛ وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط وربما غنيته وأنا عطشان فأروى .

وألمانيا بعد الحرب الأخيرة قد فجعت فى آمالها ، وطوت نفسها على الحسرة ، وهى الآن ليس لها من طعام وشراب سوى الموسيقا ، فالموسيقا هى عزاؤها والموسيقا هى غذاؤها .

فالموسيقا إذن تمسح بيدها الحانية الحادبة العطوف صدأ الهم ، الذى يرين على القلوب وتزيل بنشوتها الفرحة المرحة الطروب عناكب البؤس المخيم على النفوس ، والموسيقا تفثأ من ثورة الأيام ، وتقلم من أظفار المصائب ، وهذا فوق أنها مهذبة الطباع ومشذبة الأخلاق، وذاهبة بالانسان إلى أودية ترف بالآمال العذاب وتحفل بطوالع السعود .

ورأبى أن الناس لا يصمتون أثناء الغناء والطرب إلا لأن حسهم قد طار على جناحى نعامة إلى أودية الخيال ، وعقولهم قد ركبت متن الريح إلى عالم يزخر بطيوف من المنى وهالات من الرؤى، وهم لا يصفقون استحسانا ولا يكدون حناجرهم هتافا أو دعاء إلا لأن المغنى أو الموسيق بعد أن صمت قد ردهم بفجأة ، وبدون تمهيد إلى عالم الواقع المرير ، فهم بهذا لا يودون الرجوع إلى الحقيقة الصادقة الفاجعة ، وكأنى بالإنسان إذا خاطب سمعه لحن جميل، أنه يصمت ليسمع مع الموسيقا دقات قلبه الراقص وغناء عواطفه وأحاسيسه وكأنه بلسان حاله يقول : أذهبي إلى غير رجعة أيتها الأفكار السوداء ، واعزبى إلى غير عودة أيتها الأشباح المخيفة ، واقبلى أيتها الآمال الباسمة ، وأشرقى فى سمائى أيتها الأمانى السمان ، فقد أضحت الحياة باسمة المحيا ، ناضرة الجنبات ، كل شىء فيها ضاحك باسم ، وكل ماحولى يبشر بالخير العميم .

فالموسيقا إذاً تقلع الأفكار الشوهاء من الأذهان ، وتنزع اليأس والضيق والألم وتغرس مكان هذا الأمل والفرح والتجديد المحبوب والتغيير المرغوب .

وبعد ، فان عالمنا حافل ومفعم بضروب المتاعب وألوان الآلام : فهذه حادثات الليالى ، وأزمات الأيام ، وهذه كوارث تنزل على الانسان من فقر وفقد عزيز ، وفراق صديق ، وفشل قد يقابل الانسان ، وعقبات كأداء قد تعرض له فى الحياة ، وهذا تعب من العمل ، ومضايقات من معاملات الناس ، وهذه آمال ترزح ، فوق الصدر ، وطموح يجثم على النفس ، وكل هذا يستلزم الترفية عن النفس ، ويتطلب شحذ الهمم ، وما الموسيقا والغناء إلا المرفه البرىء ، والرائد الذى لا يكذب ، والصديق إذا عزت الأصدقاء ، وندت الاخلاء .

جعل الله حياتنا جميعا أغنية عذبة فى فم الزمان ، وصير عيشنا لحناً جميلا تصدح فيه موسيقا الهناءة والسعادة ، وتغرد فيه بلابل اليمن والإقبال .

طه خطاب طه

تاريخ الأدب العربى

الجزء الأول فى العصر الجاهلى

الأستاذ الجليل السباعى بيومى، وكيل كلية دار العلوم جامعة فؤاد الأول، وأستاذ تاريخ الأدب العربى بها، من المصريين القلائل الذين انقطعوا لدراسة الأدب العربى وتاريخه فى جميع عصوره، وقد عكف على تدريسه بكلية دار العلوم قرابة عشرين عاماً فأخرج سلسلة من الكتب تؤرخ لهذا الأدب فى خمسة أجزاء، ثم أثر أن ينشرها تباعا تعميما للنفع وإجزالا للفائدة، فقام بذلك موفقا مشكوراً، وبدأ بكتاب العصر الجاهلى الذى نقدمه للقراء.

درس فى هذا الكتاب، الأدب العربى فى العصر الجاهلى، دراسة منهجية مدعومة بالأسانيد والشواهد، فاستقرى واستنبط، وكشف عن أصالة هذا الأدب وعن الزيف فيه، ورد على الشبه التى كانت تحوم حوله وتنفيه، ثم ذيل الكتاب بترجمات لبعض شعراء ذلك العصر، فأبدع وأجاد، وقد بسط ترجمة امرىء القيس بسطا استغرق أكثر من سبعين صفحة، تناول فيها نسبه وبيته ونشأته وحياته، وأثر ذلك كله فى شعره وفنه. كما بين مكانته بين شعراء عصره، وتأثيره فيمن جاء بعده من الشعراء.

والكتاب يقع فى أكثر من ثلثمائة صفحة، وقد نشرته مكتبة النهضة المصرية وسيصدر الجزء الثانى من السلسلة، متناولا العصر الاسلامى، عهد الخلفاء الراشدين وبنى أمية، قريبا إن شاء الله.

أحمد الحوفى
المدرس بكلية دار العلوم

الفهرس

الصفحة　　　　　　الموضـــوع

٣ — ٣١ النقد فى الأدب العربى
للأستاذ السباعى بيومى وكيل كلية دار العلوم

٣٢ — ٤٠ بنو تميم فى سماء العروبة
للأستاذ عبد العزيز مزروع الأزهرى المدرس بالمدارس الثانوية

٤١ — ٥٥ النحو بين الالغاء والابقاء
للأستاذ أحمد محمد الحوفى المدرس بكلية دار العلوم

٥٦ - ٦٦ أبو يوسف وكتاب الخراج
للأستاذ أحمد أحمد بدوى المدرس بكلية دار العلوم

٦٧ — ٧٧ الموسيقا والغناء وأثرها فى ترقق الشعور
للأستاذ طه خطاب طه المدرس بحلوان الابتدائية للبنات

٧٨ تاريخ الأدب العربى — الجزء الأول فى العصر الجاهلى

٧٩ الفهرس